

مُهْرَةٌ

---

...

(صفحة خاصة بالناشر)

إيمان سمير علام

محنة

رواية

الطبعة 1 / 2019



إهداء

...

...

...





رأها تهتز في مشيتها كأنها مُهّرة، شعرها الناعم ذو اللون البُنديقي  
الداكن ربطته بإحكام على شكل ذيل فرسة عربية أصيلة يكاد  
يخطف الأبصار، بنطالها الضيق القصير شمّر عن ساقين كجُمّار  
النخيل؛ مرسوم فوق كعبها بمعقود الساق وردات صغيرة زادت  
الساق حسناً على حسنه، أما ذراعاها فقد اكتسبا بلحم لين  
متماسك في غير تهدل، وبخصرها هيف وردفها ثقيل، ذهب لُبّه  
وطار عقله وهام بها، فسأل عنها بنت من هذه؟!

أجابه صديقه (هاشم):

– هذه (هديل) يا (خليل) ابنة الشيخ عرفة الكفيف صاحب  
الكتّاب الذي كنا ندرس فيه ونحن صغار، ألا تتذكرها؟!

– معقول هذه (هديل) الطفلة التي كنا نركض خلفها ونداعب شعرها الطويل منذ قليل؟!

– تقصد منذ سنوات يا (خليل) لقد مضى على ذلك ما لا يقل عن عشر سنوات، وهي الآن فرصة يتهافت الفرسان لامتلاكها، ولكن أين هم وهي؟

– ولماذا؟!

– لأنها أجمل بنات القرية تقريبًا، وأكثرهم علمًا، وأرقاهم خلقًا، تأبى أن تتزوج إلا بمن تحبه ويحبها، فهي مهرة جموح، بالرغم من صغر سنها فهي كالقمر ليلة الرابع عشر، وهي أيضًا أظن أنها أتمت عامها الخامس عشر، لكن عقلها يسبق سنها، ورفضت كل من تقدموا لخطبتها حتى الآن؛ لأنها تريد أن تستكمل دراستها ثم ترتبط بمن يهواه بعد ذلك قلبها.

– كلام غير صحيح؛ ما من فتاة إلا وأمام رنين الذهب تميل، وتصوغها خاتمًا بإصبعك، يترك التعليم بل ويترك أهله من أجل أن يظل في يدك.

– لا أظن أنها من ذلك النوع من الفتيات يا (خليل)، لقد تقدم لخطبتها أغنياء عائلتها والعائلات الأخرى، لكنها أبت وصمدت على مبدئها.

– لئرى يا صديقي، تراهني أن هذه البنت ستكون خاتماً في يدي قريباً؟

– ماذا نويت بابتن قريب العمدة؟!

– نويت خيرًا، نلتقي قريبًا يا صديق، سلام.

مرق (خليل) كالسهم متجهًا للبيت، ثم دخل في فوضى مسرعًا، جعل أمه تضع فنجان قهوتها عن فمها في تعجب، لكن رجليها ما زالت معقودةً فوق الأخرى، ثم قالت في ثقل وجفاء:

– ماذا دهاك يا (خليل)؟ هل جننت أم مسك طائف من الشيطان لتدخل هكذا؟!

– أمي عفواً، لكن وجدتها أخيراً، وجدت ما كنتِ تبحثين عنه.

– ماذا وجدت يا ولد، لم أفهم قصدك؟!

– وجدت عروسًا جميلةً جدًّا يا أمي، وأحببتها وأريد أن أتزوجها.

– هكذا وبمنتهى السرعة: رأيتها فأحببتها وتريد أن تتزوجها؟! وكأنك ألغيت وجودي إذًا وجئت تعلمني فقط بقرارك.

– العفو يا أمي، ولكن ظننتك ستفرحين، ألم يكن حلمك أن

تفرحي بي وتريني عريسًا وتحملي أحفادي؟

– بالطبع، لكن كل شيء بالأصول، دعني أسألك من هي؟ بنت

مَنْ؟ من عائلة مَنْ؟ موظفة براتب كبير؟ أم لديها ما سترته؟ لها قرابة بأحد القادة والمسؤولين؟ من إخوتها والذين بدورهم سيكونون أحوال أحفادي؟ وغيره من الأسئلة الأهم من شكلها ومن جمالها ومن ذهاب عقلك بها.

– لا أعلم كل ذلك، كل ما علمته أنها ابنة الشيخ (عرفة) صاحب كُتّاب تحفيظ القرآن الكريم في القرية، وأنها ما زالت تدرس في إحدى المدارس الثانوية.

– لم أكذب حينما قلت قد مسّك جن فأمسيت تهذي، تريد الارتباط ببنت الشيخ (عرفة) الكفيف الذي يتلقى إحسانًا من أهل القرية جراء تحفيظه الأطفال القرآن؟! وتريد أن تتحمل عبء مصاريف خطوبة طالبة ما زالت في الثانوية ومن بعدها حتمًا ستكون في الجامعة؟!!

– لكن يا أمي.

– انس الأمر ولا تفتاحني فيه ثانيةً، بلا لعب أطفال!

نكّس (خليل) رأسه كعادته في كل مرة تحرجه أمه فيها، وتند حلماً لديه، فمن قبل كان حلمه أن يدخل كلية الحقوق ويصبح وكيلاً للنيابة مثل عمه سيادة المستشار (فاروق)، لكنها صممت أن تدخله شعبة (علم الرياضيات) ليلتحق بعدها بكلية الهندسة

بالرغم من كرهه للرياضيات، لكنه ما كان يجزؤ أن يرفض لها طلباً، وأبوه كان أمام صلاتها كفرخ صغير ابتل من ماء المطر لا يستطيع أن يراجعها أمرًا حسمته، خاصةً وهي ما زالت تكسر نفسه وتلوي ذراعه بأنه قاتل ابنتها الوحيدة.

ظلّ (خليل) منكس الرأس جالسًا عند مصطبة الباب الكبيرة، ويعبث بعضا في يده يرسم منحنيات كثيرة، ثم يفرقها بخط مستقيم، حتى أفاق على صوت أبيه:

– ما بك يا (خليل) يا بني؟ لم تجلس هكذا؟

– أهلاً أبي، أبدًا، لا شيء، فقط متعب من الدنيا وما فيها، وكاره حتى لأنفاسي، أجد الدنيا وكأنها ثقب أسود في فراغ مظلم.

– يا الله! ولم كل هذا؟! بالتأكيد خسرت جولةً جديدةً مع أمك، وكعادتها قصفتك بلا هوادة، يا بني هل هذا جديد عليك وعلينا، لقد تعودنا منها ذلك.

– لكنني كبرت يا أبي، كبرت وتعبت، ولم يعد بوسعي أن أتحمل ذلك، تعبت من قهرها وحرقتها كل حلم أرسمه، وتحطيمها لكل هدف أحده.

– يبدو أنك هذه المرة وقعت بأمر خطير وتعلقت بأمر كبير، هات ما عندك.

– وهل إذا جئت بما عندي ستساعدني، أكاد أشك في ذلك، أبي أنت أمام أمي لا تستطيع أن تومئ برأسك حتى ضد رغبتها، فدعني وشأني أكرمك الله.

– من الجائز بل من المؤكد أنني كذلك فعلاً، لكنك تعلم السبب، أنت تحملت كل قسوة أمك هذه طوال تلك السنوات الماضية حفاظاً عليك أنت شخصياً، حتى أوفر لك أسرةً متوازنةً ومتكاملةً الأركان.

– ليتك ما فعلت، بل ليتك ما التقيت بها ليلة وضعت البذرة التي نمت عني من الأساس، لقد حافظت على بيت أوهن من بيت العنكبوت.

– سامحك الله يا بني، سيأتي اليوم الذي تتزوج فيه وتنجب وتعي حجم تضحيتي.

– وكيف سأتزوج وأمي حية تسعى؟!

– همهه... تأدب يا ولد، مهما حدث تبقى أمك، هل الأمر إذًا بخصوص زواجك، ومن هي تعيسة الحظ التي دعت عليها أمها في ليلة قدر وأعجبتك وتريد الزواج منها؟

– وما الفائدة إن قلت لك وأمي رفضت وأغلقت الأمر؟!

– لنفكر معاً؛ فربما وجدنا مفتاحاً.

– أريد الزواج من (هديل) ابنة الشيخ (عرفة) محفظ القرآن الكريم.

– نعم النسب اخترت، رجل حامل لكتاب الله، وعائلته محترمة جدًا بالرغم من فقره، لكن هناك قادة ومسؤولون كُثُر يقربون له، فعندك مثلاً العميد (صالح) ابن عمه، واللواء (كمال) ابن خالة من اخترتها زوجةً لك، والنائب (شعلان) نائب مجلس الشعب السابق والعضو السياسي النشط، تستطيع أن تقول بأنه في مقام زوج عمه (هديل)، أليس اسمها (هديل)؟ والله اسم جميل وناعم وأنا شخصيًا متفائل، لكن ماذا تعمل السيدة (هديل)؟!

– أبي كلامك محفز جدًا ليتك تستطيع أن تقنع أمي ولو لمرة واحدة من أجلي إن كنت تحبني وضحيته لأجلي كما تقول، أما (هديل) فهي ما زالت طالبةً بالثانوية، أظن أن هذه السنة آخر سنة لها وستلتحق بالجامعة العام المقبل.



دخل والد (خليل) الحاج (صابر) البيت، فوجد زوجته (ريّة) ما زالت تجلس في الهجو الكبير أمام شاشة التلفاز، واضعةً رجلًا على رجل وفي يدها جهاز التحكم لإدارة التلفاز (الريموت كنترول) وفي اليد الأخرى تحرك بسبابتها ميدالية مفاتيح في حركات نصف دائرية، فابتلع ريقه بصعوبة وتنحنج، ثم أخيرًا قال:

– سلام عليكم.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، حمد لله على السلامة،  
لماذا جئت مبكرًا هكذا، ومعاد عودتك ما زال عليه نصف ساعة.

– تعبت قليلًا، فاستأذنت وخرجت من العمل مبكرًا.

– ما زال الغداء قيد التحضير، إن كنت جائعًا فاصنع لنفسك  
كوبًا من الشاي، وأظن أن هناك بقيةً في علبة الجبن التي فتحناها  
أول الأسبوع الماضي.

– أشكرك، لست جائعًا الآن، لكنني قابلت (خليل) على الباب  
وقد كان وجهه مصفرًا وعيناه مختنقة بالدموع، هل حدث شيء؟!

– لا، لم يحدث، سوى أن ابنك الوحيد يريد توريثنا في خطبة  
بنت الشيخ (عرفة) الكفيف، وهي ما زالت طالبةً فنتحمل نحن  
مصاريف خطوبة وتجهيز ومواسم وهدايا، إلخ. في حين أننا في غنى  
عن ذلك، أكننا ننتظر تخرجه وتعيينه بحكم أنه من أبناء العاملين في  
الشركة التي تعمل بها براتب كبير ليذهب فينفقه على بنت الأعمى؟!

– والله معك حق، كل الحق، لكن على ما أتذكر أن الشيخ  
(عرفة) يقرب للواء (عز الدين الأنصاري) الذي يعمل بجهاز  
المخابرات، وابن عمه العميد (شكري) الذي يعمل في جهاز الأمن  
الوطني، وأن هؤلاء ليس لهم أبناء وسمعت بأن جزءًا كبيرًا من

تركتهما ستنتقل للشيخ (عرفة) حيث أنه وريث من ضمن وارثين  
قلّة، ناهيك عن فخر مصاهرة هؤلاء، لكن رأيك دومًا هو الصواب،  
فلا داع لهذه الزيجة طالما سترهقنا مادياً ولن نجد منها نفعًا.

– أنا لم أرفض تمامًا يا حاجّ، ولكن البنت ما زالت صغيرةً،  
فلينتظر حتى تدخل الجامعة، ثم بعد سنة أو سنتين نتقدم  
لنخطبها له، فيكون الأمر أهون والمصاريف أقل.

– كلامك صحيح جدًّا ومعقول، لكن هل تظنين أن بنتًا في  
جمالها وحسبها ونسبها ستنتظر كل هذا دون أن يخطفها غيرنا، ما  
رأيك لو نتقدم ونقرأ فاتحتها فقط، وبذلك نكون لم نتورط تمامًا في  
خطوبة وشبكة ولن نكون ملزمين بنفقة، وبعد ذلك وبمجرد ما  
تنتهي من دراستها الجامعية نقدم شبكةً رمزيةً ونعقد عليها ل(خليل)  
وندخلهما معنا هنا في البيت، أما بقية العمارة فسنؤجرها ومن ريعها  
سنصرف – بالمعقول طبعًا – عليهما حتى تتوظف البنت وتتحمل مع  
زوجها مصاريفهما.

– والله كلام منطقي جدًّا يا أبا خليل، لكن نحن نظل كرماء ولن  
نقبل أن يعيش ابننا الوحيد من غير بيت مستقل؛ سنعطيم الشقة  
الصغيرة التي تقسم الدور الذي فوقنا، وهي تكفيهم حجرتان  
بمنافعهما، ولكن سيكون أكلهما وشربهما حتمًا معنا، فأنا لم أربّ  
وأكبر لتأتي هذه وتأخذ مني ابني خالصًا مخلّصًا.

– إذًا، اتصلي على (خليل) وألقي عليه بالبشارة، وبإذن الله سيكون كل خير.

وهناك في بيت الشيخ (عرفة) وقفت (هديل) مع أمها في المطبخ تُعد أصنافًا من الحلوى والكعك، وعلى طرف شفيتها يتأرجح سؤال، وأخيرًا حسمت أمرها وقررت أن تتكلم.

– أمي؛ لمن ن صنع كل هذا الكعك والحلويات، من يرانا يظن أن لدينا حفل زفاف؟!

– والله يا بنيتي كل ما علمته من أبيك أن هناك ناسًا مهمين سيأتون لزيارتنا اليوم، وطلب مني أن نعد كل ما نستطيع من أصناف الحلويات، هذا غير الفاكهة التي أمرني بالأمس أن أحضرها من سوق الخميس وأجهزها، وطلب من (مُحي) أخيك أن يحضر صندوقًا من المياه الغازية معه، وعندما سألته ولم؟ ولمن كل هذا؟! قال سيأتينا ضيوف مهمون وتركني وذهب ليكمل حلقات تحفيظ القرآن.

– لعل خيرًا بالمال بعد قليل يصبح بالمجان، سنعرف بعد أن يأتي ضيوفه ويمضوا كل شيء، فلا داعي لنشغل بالنا، يمكن أن يكونوا أقاربه من ذوي السُلطات.

ثم مضت ساعات خرج الضيوف من (مندرة) مضيضة الشيخ

(عرفة) يتهلل وجههم السرور، ووقف (خليل) على مواجهة مع باب دار الشيخ (عرفة) علّه يظفر بنظرة من (هديل)، وبالفعل رأها تمر من غرفة تتجه لأخرى فلمحته، والتقت أعينهما في نظرة عميقة دافئة لكنها أرجفت قلوبهما، وخفق قلب (هديل) بشدة واحمرّت وجنتاها وعلتها سخونة غريبة في منتصف شهر يناير القارس، أما (خليل) فبالرغم من شدة ارتياكه عندما رأها لكنه ظلّ يمتّع ويطلّ النظر إليها وكأنها أشهى من أن يحرك نظره عنها دون أن يشبعه، فتحرّكت (هديل) متباطئةً وهي تخفض رأسها وترفع بصرها تارةً تجاه (خليل) ومشّت على استحياء واطعةً طرفي بناني سبابتها والوسطى مجتمعين على فمها خجلاً.

(خليل) كان شاباً طويلاً مفتول العضلات، عريض الكتفين واسع الصدر، تعلق صدره شعيرات كثيفة ظهرت من فتحتي أزرار قميصه العلوي، وقد شمرّ عن ساعدين خمراوين مفتولين، وعيناه عميقتان لونهما كالعسل الصافي، أهداب جفونه طويلة ومكتحلة دون كحل، أما حاجباه فكانا طويلين؛ احتضنا عينيه في اتساع وثقل، رائحة عطره كانت نفاذةً جدًّا، عبأت المكان وسحرت وجدان (هديل) عندما داعبت أنفها الرقيق وسرت بأنفاسها لتمتّج بروحها، فتسلبتها تلك الروح منذ تلك اللحظة لتذهب مع (خليل)، ما علمت كيف ولمّ (خليل) بالذات قد أسر روحها، ففي الحب تختفي الأسئلة وتذوب علامات الاستفهام والتعجب. إن القلب إذا ألقى

أمره بطل العجب وقُتِل العجاب.

ما شعرت (هديل) بنفسها منذ عانقت عيناها عيني (خليل)،  
ولا فاقت من ثملتها، إلا بيد أمها تحتضن كتفها وتقول لها:

– مبارك يا (هديل) لقد أتاكَ اليوم (عريس) من زينة شباب  
القرية، وأبوك وأخوك رحبا به جدًّا، وينتظران رأيك، ألا تتذكرين  
ذلك الشاب الذي طالما كان يضع على عنْدك وأنت صغيرة، ولا يحلو  
له جلسة في حلقات التحفيظ دون أن يشاكس فيك، (خليل) ابن  
الحاج المهندس في شركة الكهرباء (صابر خليل) الثري الذي لديه  
عمارة على أول القرية، والذي فقد ابنته الوحيدة في حادث بشع  
منذ عدة سنوات بينما كان يحضرها من أحد الدروس، فدخلت  
سيارة نقل في سيارته الملاكي؛ فنجوا هو وماتت ابنته –رحمها الله–  
وأما وبالرغم من مرور تلك السنوات لا تزال ترتدي الأسود حدادًا،  
وتأبى أن تضحك، فما رأيتها بعد موت ابنتها ابتسمت قط، وقد  
حرمت على نفسها أفراح القرية، لا نراها إلا في التعزية فقط،  
وسمعت من نسوة في القرية أنها ما زالت تُحمَل (زوجها) ذنب وفاة  
ابنتها الوحيدة وتقهره بذلك، بل ويقولون أنها كانت عندما تغضب  
عليه ومنه تسبه وتقول له يا قاتل ابنتك... ما علينا من كل هذا، هل  
تذكرت الشاب يا بنتي!؟

– نعم يا أمي أتذكره جيدًا، وأعلم أنه شاب ناجح ومتميز،

وخلوق، وفي النهاية الرأي لأبي ولك.

— إذًا، سأعلن موافقتك بزغرودة.



مرت السنوات سريعًا، أربع سنوات بالتمام والكمال؛ كانت كافيةً لتؤلف بين قلبي (خليل) و(هديل) وتذيب كافة العقبات التي حاولت أن تعرقل طريق حبهما.

(خليل) كان هائمًا بـ(هديل) للدرجة التي جعلته يعمل لساعات إضافية دون علم أمه؛ ليوفر بعض الهدايا لـ(هديل) طوال فترة الخطوبة، كانت هدايا رمزيةً كعروس المولد النبوي ذات الفستان التلّي الزهري الكبير، والتي كانت عند (هديل) بكل مجوهرات الدنيا وحُلي الصاغة، لأنها كانت تعلم تمامًا أن (خليل) أتى بها خفيةً وخالف شُحّ والدته ليفرح قلبها هي ويدخل السرور عليها فتباهي نظيراتها من بنات القرية بهدية خطيبها كعادة البنات عندما يردن أن يفاخرن بعضهن ويظهرن أثر نعمة خطابهن عليهن وكأنهن في سباق من التي جاءها خطيبها بأفضل هدية.

ولم تكن عروس المولد وحدها الهدية الوحيدة؛ بل كان مُغلّف الشوكولاتة بالبندق أساسيًا كلما جاء إليها، ومن شدة فرحتها وحبها له كانت تخبي الغلاف في صندوق صغير؛ على أمل أن تريبه لصغارها

فيما بعد وتقص عليهم نبأ والدهم وأنه كان يعمل لساعات دون علم جدتهم حتى يستطيع أن يوفر ثمن تلك المغلفات والهدايا.

مرت السنوات، وحن وقت انتقال (هديل) لبيت (خليل) أو بمعنى أكثر دقة لبيت الحاجة (ريّة)، تم تحديد موعد الزفاف، حددته الحاجة (ريّة) في منتصف شهر أمشير والذي هو معروف في مصر بعواصفه الشديدة ورياحه وزوابعه، وكأنها تريد ألا يحضر أحد الزفاف فيوفر ثمن المشروب، وبالفعل جاء يوم الزفاف باردًا قارصًا ممطرًا وراعدًا فلم يحضره سوى أقرب الأقرباء واكتفوا بإيصال العروس والتي تناست سوء الجو بدفء نظرات (خليل) ولمساته الحانية.

دخل العروسان عشهما الصغير، و(خليل) يكاد يطير من الفرحة، طوق عروسه بذراعيه واحتضنها بعينيه وضمها بقبلة دافئة عميقة من شفثيه، فذابت بين يديه، ليفيقا على طرق على الباب، فربت (خليل) على كتفي عروسه وقام بشد الغطاء عليها، وقام فارتدى ملابسه، وخرج ينظر من الطارق في هذه الساعة.

– افتح يا (خليل) افتح يا بني.

– أمي؟! خيرًا يا أمي!

– خيرًا يا بني، لكن يبدو أن المدعويين أنهموا على كل الطعام

الذي لدينا فلو أمكن أن تملأ لي هذه الصينية من عشائك، أعلم أن حماتك صنعت لكما ما لذ وطاب، أم أقول لك أفسح وسأدخل أنا وأضع ما يعجبني ولا داع لأتعبك في هذه الليلة.

واندفعت (رية) دون أن تنتظر جوابًا من خليل نحو المطبخ، ومألت الصينية التي معها حتى يبدو أنها أنهت على عشاء العروسين، وخرجت تصطنع ابتساماً، وخليل واقف في بلاهة وصدمة.

– من الطارق يا (خليل)؟!

– أبداً، إنها أمي يا (هديل).

ثم أشعل خليل سيجارةً، فقالت له (هديل) في نعومة وإشفاق، هل ستدخن قبل أن نأكل شيئاً، أنا لم أكل شيئاً منذ الصباح وجائعة جداً، سأقوم لأحضر لنا العشاء.

ثم قامت (هديل) وارتدت ثوباً يغطي ما شفت عنه ثياب نومها، واتجهت نحو المطبخ، فصُعِقَتْ ونادت:

– خليل؛ أين الحمام؟ لقد أعدت لنا أمي زوجين من الحمام، لا أجد منهما واحداً؟!

– لقد أتت أمي، ويبدو أن الطعام لديهم نفذ، وأنت تعلمين أن أبناء خالتي وأخوالي يبيتون عندنا منذ يومين ابتهاجاً لفرحنا، فأنت لتزداد لهم.

- حسنًا لا عليك، لنأكل من الإوزة، فلقد أعدتها أمي  
مخصوصًا وتم حشوها بالجهان والمستكة و... أين الإوزة هي  
الأخرى!؟

- لقد زودت بها أمي، فهي تشتبي الإوز منذ فترة، وتريد أن  
تذوقها وتتقاسمها مع أبي، وتترك الحمام لأخوالي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسنًا، لنأكل الفاكهة  
يا (خليل)، أحضر لي أبي التفاح الأمريكي الأحمر خصيصًا، والموز  
المغربي، فليكن عشاءنا خفيًا.

- إن الضيوف بحاجة لتحلية، فأخذت أمي الفاكهة.

- إذا، سأنام يا خليل، ولا داع للأكل، سأعتبر نفسي في صيام  
رمضاني صيفي طويل، تصبح على خير.

- هديل؛ إنها ليلتنا وإنني أحتاجك، انظري إليّ أرجوك، فعيناي  
عطشى لرواء عينيك.

- وأنا متعبة يا (خليل) ومنهكة حد الإعياء، وأريد أن أنام،  
تصبح على خير.

وفي الصباح، وعند الساعة التاسعة، تم طرق الباب بقوة وكان  
من الخارج على وشك القبض على (خليل) وزوجته، فانتفض  
(خليل) وارتدى بنطاله في عجل وقام ليفتح الباب، بينما اثاقلت

(هديل) وكاد الحنق يفتك بها.

– مبارك يا حبيبي، أخوالك وخالاتك وبنات خالاتك، الكل يريد أن يُصَبِّحَ عليك، صباحية مباركة يا قلب أمك، أين عروسك؟! لا يمكن أن تكون نائمة! نادها لتسلم عليهم قبل أن يسافروا، يا (هديل) أين أنت؟!

– ربنا يبارك فيكم يا أمي، (هديل) تأخذ حمامًا وستأتي، تفضلوا بالجلوس، وسأنادي عليها بنفسي.

ثم دخل (خليل) وهو يحاول أن يتمالك أعصابه، لينادي على زوجته التي قامت ممتعضةً ومستاءةً مما يحدث، ولولا حبها لزوجها ما خرجت ولا سلّمت ولا صافحت، ولكن ما باليد حيلة، قامت فاغتسلت سريعًا ولبست عباءةً ذات لون كريبي ناعم يشبه السكر المذّاب، وبيدها طبق حلويات قدمته للضيوف فالتقتته حماتها من يدها ليتخاطفه الجميع ويزدردوه في نهم وهم يضحكون ويقع الفتات على السجاد في لا مبالاة وبرود.

مرّ أول أسبوع سريعًا، وكعادة الأرياف يأتي أهل العروس بما لذ وطاب يوم السابع من الزواج، ويعيدون مباركة العروس، وقبل أن يصلوا بيوتهم عاندين كانت حماة (هديل) تصعد لزوجة ابنها (بسبت) ثياب غير نظيفة لتغسلها (هديل)، فتساءلت (هديل):

– أليس عندك غسالة (فل أتوماتيك) يا حماتي؟!

– بلى، ولكن لم يبق من مسحوقها شيء، وفيها عطل بسيط،  
فحتى يأتي عمك بفني صيانة، هل ستغسلين ملابسنا أم أذهب بها  
للجيران؟!

– لا، العفو، سأغسلها بالطبع.

ثم قامت (هديل) بغسل الثياب وتعطيرها، ونشرها، ثم جمعتها  
وقامت أيضاً بكيها وتطيقها، ونزلت بها نظيفةً مكويةً لببت حماتها،  
فوجدت حماتها تشرب فنجان قهوتها أمام التلفاز واضعةً رجلاً على  
رجل كعادتها، ولاحظت (هديل) قدرًا بطرف عينها علبة مسحوق  
غسيل يبدو أنها مفتوحة ومأخوذ منها مرات قليلة فوق غسالة  
حماتها، فلما انتهت حماتها لدخولها، ارتبكت قليلاً ثم قالت:

– لقد اشترى عمك مسحوق غسيل، لكنه نسي أن الغسالة  
معطّلة، تعالي يا (هديل) جنّت في وقتك، فالمطبخ يحتاجك، هناك  
أواني الغداء صَعُب عليّ تنظيفها بعد الدهون المتراكمة عليها، وهي  
تحتاج ليدين قويتين مثل يديك، فادخلي اغسلهم، ثم هات من  
عندك مغلف من اللبن البودرة، وطبقًا من الرز، وكيسًا من السكر  
واصنعي لنا الأرز باللبن فعمك (صابر) يحبه كثيرًا، وأكثرني من  
السمن البلدي على وجهه، رأيت في مطبخك قدرًا مملوءًا بالسمن  
البلدي فلا تكوني بخيلةً.

حاولت (هديل) أن تتمالك أعصابها، ودخلت وهي ساهمة كأن على رأسها الطير، تنفذ ما طلبته منها حماتها.

تكرر المشهد السابق كثيرًا في صور مختلفة، فمرة تريد الحماة من كنتها أن تمسح لها بيتها كاملاً، ومرة تعنفها وتهينها لو تأخرت في النزول لتعد الإفطار والذي غالبًا كان مكوناته مما كان يحضره المهنتون كعادة الريفيين لكنتها، حتى مرت الأيام ونفذ ما لدى (هديل) وأصبح عليها أن تقدم المزيد والمزيد من التنازلات لحماتها لأن راتب زوجها كان يُدفع كاملاً ليد حماتها وكانت هي المتصرف الوحيد في كل شؤون البيت.

حتى جاء اليوم الذي تأكدت فيه (هديل) من ثبوت بذرة زوجها في رحمها مكونةً ثمرةً في رحمها، وقد أخبرها الطبيب أن الجنين ولد، فكادت تطير فرحًا، فعادت للبيت، وصعدت لشقتها دون أن تمر على بيت حماتها كالعادة، ثم دخلت وتزينت فأحسننت تبعلها، وانتظرت (خليل) حتى سمعت صوت المفاتيح بداخل الباب فخرجت واضعةً يدها على بطنها وتعلو عينها لمعة زادت وجهها وضاءةً وجمالاً، فقال (خليل) مداعبًا ومغازلاً وهو يكاد يلثمها بعينه:

– ما الذي أوقف القمر هكذا؟!!

– ينتظرك ليخبرك أمرًا يستحق أن تعطيه عنه مليون جنيه.

– خيراً يا رب.

– مبارك يا (خليل) ستكون أباً لصبي جميل يشبهك بإذن الله يا حبيبي، سيكون قرة عين لك، سننأ تشدد به أزرک وتشرکه في أمرک، خاصةً وأنک وحيد.

– (هديل)؛ أنتِ حامل؟!!

– نعم في أواخر شهري الرابع، ولم أکن أريد أن أخبرک ولم أذهب للطبيب، حتى تعبت وشعرت بضرورة الرجوع للطبيب، وبالفعل أمرني الطبيب بالراحة وعدم الإجهاد، خاصةً وقد نزل عليّ بعض الدم جراء مسحي لوالدتك بيتها منذ يومين.

– لا، لا، لا مسح ولا تنظيف ولا حمل ثقيل بعد اليوم، ارتاحي تمامًا ولا تتحركي، ولو على طعامنا ساعد لنا طعامًا خفيقًا، فأنا ماهر بالطهي منذ كنت في الجامعة.

– ولكن هل ستتركنا أمک يا (خليل)؟! هل ستدعني أرتاح كما تقول؟!!

ثم ما أكملت (هديل) كلامها حتى فتح باب شقتها ودخلت الحاجة (رية) وعلى وجهها عبوس أهل الجحيم، تكاد تحرق (هديل) بنظراتها شذراً.

– ما هذا الذي ترتدينه يا (هديل)؟! ألم أنبه عليك مرارًا وتكرارًا

ألا ترتدي ثيابًا حمراء مكشوفة؟! هل ستظلين عاريةً هكذا طوال اليوم، ومتكاسلةً عن النزول وأطلع أنا ورجلاي لا تحملاني الماء إليك؟! ألا تشعرين على دمك قليلاً يا بنت الأعمى.

– أمي؛ هديل في بيتها وأنا اتصلت بها وطلبت منها أن ترتدي ذلك القميص الأحمر تحديداً، ألن تباركي لنا؟! فهديل لم تنزل إلا لأنها متعبة والطبيب منعها النزول.

– وعلام المباركة يا عين أمك، يا سبع السباع؟

– هديل حامل بصبي، سيكون لي ابن من صلبي.

امتقع وجه الأم واختلطت بها جميع الأحاسيس، وظهرت على وجهها جميع الانفعالات في لحظة واحدة، حتى استقر الأمر لإظهار فرحة خبيثة وجاء ردها أخيراً:

– مبارك يا بني، والله ما نهت عليها إلا خوفاً عليها من أعين الجن، خشيت أن يتلبسها جني كما تلبس ببننت عمك (سهير)، فقد عشقها خادم السحر وجني من الجن السفلي – أعاذنا الله – لأنها كانت دوماً ترتدي ثياباً مكشوفةً هكذا في بيتها ومن يومها وهي في حال غير الحال، لكن من الآن يجب على (هديل) أن ترتاح حتى تضع ابنك وحفيدي الوحيد.

مضت شهور الحمل في سلام، وكان أم خليل قبلت بهدنة صلح

ترتاح فيها هديل ما تبقى لها من أشهر قليلة، حتى وضعت (هديل) طفلاً جميلاً يشبه البدر ليلة التمام، ارتسمت ملامحه بصورة تكاد تجعله نسخةً مُصغرةً من أمه...

وقديماً قالوا على قدر ما يحب الرجل زوجته يأتي الوليد يشبهها، كان طفلاً ذا غمازتين في وجنتيه زادته حسنًا على حسنه ورثهما أيضًا عن أمه (هديل)، أما عيناه فكانتا واسعتين ورموشه تصل لحاجبين عريضين أخذهما هذه المرة عن أبيه، أما الأنف فكان دقيقًا وصغيرًا وذلك كان قاسمًا مشتركًا بين (هديل) و(خليل)، لكن نعومة شعره أخذها عن (هديل) فكان كثيفًا ناعمًا، في حين أخذ لون الشعر عن أبيه فكان شعره أسود كالليل...

كان وجهه وضيئًا بسامًا وكان الملائكة تضاحكه وهو نائم، وكان سميئًا نوعًا ما؛ مما جعل جدته لأبيه تخشى عليه الحسد فزملته ودثرتة في لفافات كثيرة وخبأته عن العيون، ورفضت أن تظهره على الزائرين للتهنئة، بل كانت تعطيه لأمه ترضعه بصعوبة، فكانت ملتصقةً به بصورة غريبة؛ جعلت (هديل) تغار على وليدها من جدته...

سمته الحاجة ريّة (إبراهيم) ولم تدع الفرصة لخليل وزوجته لاختيار اسم ابنهما، مما زاد من حنق (هديل) ليس اعتراضًا على الاسم بقدر ما هو انزعاج من تدخل حماتها في أدق تفاصيل حياتها

منذ الوهلة الأولى، حتى جاء ما يطيب خاطر (هديل) قليلاً ويوفر أول لبننةً في صرح استقلاليتها...

جاء الخطاب الذي كانت تنتظره منذ شهور وتمت الموافقة على تعيينها مُعلِّمةً بإحدى مدارس القرية؛ ففرحت (هديل) جدًّا لهذا الخبر وقررت أن تخرج ثلث أول راتب لها للفقراء من جيرانها وثلثًا آخر ترسله لأبيها كعرفان منها بجميله أنه علمها ورباها فأحسن تأديبها، وتنفق الثلث الأخير في بيت زوجها.

علمت حماة (هديل) بخبر تعيينها فشعرت بشيء من الفرحة حيث عرضت على (هديل) ألا تلحق (إبراهيم) الصغير بحضانة وأن تعطيا إياه كل صباح وهي ستعتني به حتى تعود، في البداية ترددت (هديل) في قبول عرض حماتها فهي كانت تريد أن تبدأ فعليًا في الاستقلال عن حماتها، لكن (خليل) أقنعها أن برودة الجو وإهمال الحضانات فيه خطورة على (إبراهيم) الصغير؛ بينما في حضن جدته سيكون في مأمن، فوافقت (هديل) مضطرةً ولكن شيئًا ما في قلبها لم يكن مرتاحًا لذلك.

ومرت الأيام والشهور، وجاءت الإجازة الصيفية؛ وما عادت (هديل) في حاجة للذهاب كل يوم للمدرسة، فلقد تم تقسيم العمل الصيفي بحيث ستذهب (هديل) أسبوعًا واحدًا فقط في الشهر، وكان بإمكانها أن تصطحب طفلها معها.

ثم بدأت (هديل) تأخذ أولى خطوات الاستقلالية؛ فغيرت مفتاح شقتها بمفتاح آخر جديد من راتبها، وبدأت تقلل من مرات نزولها لبيت حماتها وتصطنع الحجج في ذلك بتعب (إبراهيم) أو إرهاقها من العمل نهارًا والسهل ليلاً بطفلها...

ثم بدأت (هديل) تدبر من راتبها وتدخل فيما يسميه المصريون (الجمعيات الشهرية) وهي وسيلة ممتازة للتدبير المالي، وتشتري منها أثاثًا جديدًا وتجدد فيما بلى من أدوات مطبخها، فباتت تبتكر أكالات أشهى وألذ، واشترت ثيابًا أنثويةً رقيقةً وجميلةً وعطورًا ساحرةً ومساحيق تجميل تزينت بها بلطف ونعومة مما جعل (خليل) لا يفارق البيت إلا قليلًا، حتى وقعت الطامة الكبرى!

طلبت (هديل) من (خليل) أن يكتفي بإعطاء نصف راتبه فقط لأمه ويعطها هي الباقي لتدبر به أمر بيتها خاصةً وأنهما ما عادا ينزلان بيت والدته إلا قليلًا، اقتنع (خليل) بما قالته زوجته وقرر أن يعطي أمه ابتداءً من الشهر الجديد نصف راتبه فقط.

وعندما جاء يوم قبض (خليل)، اتجه نحو بيت أمه، فدخل وألقى السلام.

– وعليكم السلام ورحمة الله، ما عدت أراك إلا قليلًا، حتى (إبراهيم) منعتموني من رؤيته، مر يومان ولم أره فيهما بحجة أن زوجتك نائمة أو الولد نائم، أو زوجتك ذهبت لأمها، وكأن أمك لم

تعد في حساباتك يا (خليل) وأمتني حيّةً.

– العفو يا (أمي)، لكن والله فعلاً (إبراهيم) كان أخذًا التطعيم وكانت حرارته مرتفعةً ورجله اليمنى شبه متوقفة، فذهبت به أمه لجدته علّما تريحها قليلاً في حملة، ولعل جده (عرفة) يُرقيه.

– وهل كنت سأكل بحفيدي الوحيد، هل لو أتت به بنت الأعمى ما كنت لأحملة وأرقيه وأضعه في قرة عيني؟!

– حدث خير يا أمي، إنها لم تُرد أن تتعبك، وعلى العموم تفضلي هذا معلوم كل شهر وكل شهر وأنت بخير.

أمسكت أم خليل النقود والتمتها بين أنمالها تعدها، ثم نظرت لخليل في استغراب، وقالت في تهكم:

– ما هذا؟ الراتب ينتقص النصف؟!

– أعلم يا أمي، لكن نحن منذ شهرين ونصف تقريبا وعدنا نأكل بمفردنا في بيتنا وما عدنا ننزل، فلذلك أرى أننا بحاجة للنصف وسأعطيك وأبي نصف الراتب كإيجار للشقة ومساعدة مني لكما.

– تمام يا بني كما تشاء والله يعينك ويقويك.

قالت (رية) ما قائلته لكن ما أضمرته كان عكس ذلك فكان حديث نفسها مختلفًا فبدأت تحدث نفسها وتقول: «بدأت بنت الأعمى تبث سُمها، وتأخذك وحفيدي مني، لكن هميات لها ذلك

ولنرى من سيضحك في النهاية.»

انتظرت (رية) حتى اطمأنت أن ابنها سعد، وأن زوجها ليس في البيت، وأتت بالهاتف المحمول واتصلت برقم يبدو أنه كان ملفوفًا في ورقة قديمة ومطوية بإحكام في صندوق تحتفظ هي فيه بالأشياء المهمة، فجاءها الرد من الاتجاه الآخر:

— وعليكم السلام والأمان، نعم، وعلى العهد ما زلت باقيًا، شرفيني بزيارة تنالي البشارة.

وفي صباح اليوم التالي، انتظرت (رية) حتى اطمأنت أن ابنها قد خرج، وصعدت وهي تعلم أن زوجة ابنها بالأعلى، فطرقت الباب، ففتحت (هديل) فسلمت عليها حماتها واحتضنتها على غير عادة وقبلتها، وهديل مذهولة، ثم رحبت بحماتها وقالت لها تفضلي.

قالت الحماة لن أطيل عليك يا بنتي لكن غطاء رأسي الأسود وقع عليه كلور، وأنا في حاجة لغطائك لأن لدي مشوارًا مهمًا، فلو ممكن تعطيني إياه وسوف أعيده إليك مغسولًا ومكويًا بمجرد عودتي أكون شاكرةً يا بنتي.

استغربت هديل جدًّا من لطف حماتها، وأمام هذا اللطف لم تجد مانعًا من أن تعيرها غطاء رأس أسود خاصة وأن هديل لديها اثنان، فشكرتها حماتها وخرجت وعلى وجهها ابتسامة خبث لم

تستوعبها (هديل) بعد.

خرجت (رية) واتجهت بفورها لأول الشارع واستقلت (توكتوك) وقالت له عزية المقابر إذا سمحت، عند الشيخ (أبو نوار).

التفت سائق (التوكتوك) في ذهول واضطراب وتردد إلى (أم خليل)، لكن صيحةً قويةً منها له جعلته يضغط على محرك الوقود وينطلق وهو يتمتم بآيات المعوذتين وآية الكرسي.

نزلت أم خليل من (التوكتوك) بعد عراك شديد وتهديد ووعيد حيث كانت تريد أن تعطيه جنهين اثنين فقط لا غير أجر مشوار نصف ساعة ناهيك عن المطبات التي جعلت صاحب الـ(توكتوك) طيلة الطريق يلعن أم خليل والشيخ أبو نوار بل ويلعن اليوم الذي عمل فيه على (التوكتوك) من الأساس.

وبعد عراك وخناق شديد أخذ السائق جنهًا ونصفًا زائدًا فقط على الجنهين بعد أن رفضت أم خليل وحلفت برحمة ابنتها ألا تعطيه ربع جنهيه آخر زيادةً عن الثلاث جنهيات ونصف، فأخذهم الرجل وهو يتمتم ويسب ويغمغم بدعوات ولعنات وانطلق معفرًا بالتراب في وجه أم خليل التي رمته بأبشع السباب.

توجهت أم خليل نحو بيت الشيخ أبو نوار الدجال، فوجدت زحامًا نسائيًا شديدًا وثرثرةً بين النسوة؛ فتلك تحكي عن قوة الشيخ

الدجال الذي رد ابنتها المطلقة لزوجها بعد يوم واحد من الطلاق، وتلك التي استطاعت أن تؤدب جارتها وتخرسها بعد أن رشّت لها السحر على باب بيتها فلم تعد تخرج تضايقها، وهذه التي جعلت سلفتها تكره بيتها وتسب حماتها وتطلب الطلاق وبالفعل وبقوة سحر الشيخ أبو نوار ارتاحت للأبد من منافستها الوحيدة، وأخرى ما زالت في رحلة العلاج مع الشيخ وكل ما تتمناه طفلاً يناديها بأبي.

ظلت أم خليل تستمع لثرثرة النسوة حتى انتهت لاسمها يُنادى عليه أن تدخل، فدخلت وأطرافها ترتجف ودقات قلبها تكاد تقفز به خارج حنجرتها فحاولت ابتلاع ريقها ورمت السلام.

– وعليكم السلام والأمان يا حاجة أم خليل يا رية يا بنت سليمة، تفضلي ولو إن الأسياد في غضب شديد لتأخرك عن زيارتهم كما وعدت آخر مرة.

– اعذرني يا شيخ وليصفح عني الأسياد؛ فلقد انشغلت بزواج ابني الوحيد، لكنني ما زلت على العهد، وأتية وكلي أمل ألا يرفضوا لي طلبي وهم الأعلى والأكرم مني.

– هاتي ما عندك يا (رية) هل تريدين تجديد السحر القديم؟ أم عمل آخر جديد؟

– بل أريد عملاً جديدًا يخلصني به الأسياد من غريمتي التي

جاءت لتشاركني ابني الوحيد، بل وتخطفه مني وتريد أن تحرمني من حفيدي الذي طالما انتظرتة وتستاثر به لنفسها، فهل يرضي الأسياد ذلك؟ إنني لا أريد إلا ابني وحفيدي ولتذهب بنت الأعمى للجحيم.

– فهمنا قصدك ولك مرادك، لكن هل جئت باسمها واسم أمها وشيء من طرفها؛ لنتمكن من تحقيق ما تتمنين؟ وقبل كل ذلك هل ستضعين أجر ذلك ألفين من الجنهات إكرامًا للأسياد أم ستتعبين قلبي ككل مرة في فصال وجدال؟!

– أالفان؟!

– نعم يا رية؛ أنت تريدين ابنك وحفيدك لك خالصين، وهذه طلبات الأسياد لا طلباتي، هل ستدفعين أم تقومي وتفسحي الوقت والمكان لمن بعدك؟!

– الأمر لله؛ سأعطيك الآن ألفًا وبعد نجاح العمل ألفًا أخرى.

– لا، الأسياد تأمرني بألفين الآن وألفًا أخرى بعد نجاح العمل، فما رأيك؟

– لكن هذا كثير يا شيخ أبو نوار، ما عهدت ذلك من الأسياد، كلمهم يكرموني قليلاً، وسأعوضهم عند تجديد السحر كل ميلاد قمر جديد.

– الأسياد وافقت يا (رية)، فهاتي ما طلبت.

– اسمها هديل بنت صفية، وهذا قطرها غطاء رأس، هل يكفي؟!

– نعم يكفي، انتظري دقائق في الخارج وسأنادي عليك.

خرجت أم خليل وهي تحاول أن تتمالك أعصابها التي كادت تفقدها من الخوف تارةً ومن النقود التي ستدفعها مرغمةً تارةً أخرى، ثم جلست وأسندت رأسها على الحائط اللبني وطلبت كوب ماء من خادم الدجال فجاءها بكوب ماء من (زير) وهو إناء فخاري كبير يُوضَع فيه الماء، فشربت وارتوت وهدأت قليلاً.

وما لبثت إلا وسمعت باسمها مُكْتَى يُنادى عليها من جديد، فقامت ودخلت على الشيخ، فأمرها لتجلس فجلست، ثم أعطاها قارورةً فيها سائل أحمر وطفق يشرح لها كيف ستستخدمه: ستضع منه على مشروب وتسقيه لمن عليها العين والنية (هديل بنت صفية) وبقية السائل ستضعه على بعض الماء وستنثره على عتبة باب المذكورة في ليلة تمام البدر، ولكن حذار أن تراها فيبطل المفعول.

فسألت أم خليل:

– ولكن، لو خطى ابني العتبة هل سيؤدّي بذلك السحر؟!

فأجابها الدجال أن عيب عليها أن تسأل كهذا سؤال، والسحر معمول باسم وشيء من طرف المقصودة بعينها (هديل بنت صفية)

فلو تخطى السحر الآلاف من الرجال ما ضر إلا ما كان عليه  
الخاطر والبال.

ومع ميلاد شهر عربي جديد، يستوجب على أم خليل أن تأتي  
مع بزوغ أول هلال لتجدد العهد، وستُسَرُّ بالنتائج.

انطلقت أم خليل وبين يديها قارورة السحر تحافظ عليها أكثر  
ما تحافظ على روحها، وأخيرًا قررت أن تخبئها بين سحرها وثديها،  
وشاورت بأمل سبابتها لتوكتوك جديد فركبته وانطلقت نحو بيتها  
تعلو وجهها ابتسامة خبث تكشف عن أسنانها الصفراء.

في اليوم التالي.

أعدت أم خليل أكوأبًا من العصير وخرجت من الباب، وظلت  
تنادي على زوجة ابنها لتأتي لتشرب العصير المثلج معها، وعندما لم  
يأتها جواب، حملت صينية العصير ووضعت غطاء رأس (هديل)  
بجانب الأكواب مطبقًا وقد عطرتة بقليل من معطر الغسيل وكأنها  
غسلته وهو في الحقيقة لم يتذوق ذرة ماء، وصعدت فطرت باب  
بيت ابنها ففتحت (هديل) ويبدو أنها كانت نائمةً فاستيقظت على  
طرق الباب.

دخلت أم خليل ووضعت صينية العصير على المنضدة  
الصغيرة الملحقة بكراسي الاستقبال، وجلست وادعت أنها جاءت

تشكر هديل على غطاء الرأس وتشرب معها العصير.

استغربت (هديل) بدايةً لكنها لم تشك لحظةً في المصير الذي ينتظرها، بل فرحت في بلاهة وبراءة وقالت في نفسها ربما شعرت حماتي بقيمتي بعد أن ابتعدت وجاءت تشتري ودي بعد أن أصاب بيتها العفن بعدما كنت يدها ورجلها في تنظيفه وترتيبه وتدييره. قدمت أم خليل لهديل كوب العصير فأخذته هديل وشربته دفعةً واحدةً، وقالت:

– صحوت من نومي والعطش يقتلني، وكوب عصير الليمون هذا جاء في وقته حقيقةً؛ فشكر لك يا حماتي.

– العفو يا بنتي، مسرى العافية، أتركك تكملين نومك وأنزل أنا لأن عمك أبا خليل على وصول ويجب أن يجدني في البيت.

بعد يومين، بدأت (هديل) تشكو من ألم شديد أسفل ظهرها، وأنها ترى أحلامًا مزعجةً بل كوابيس، ترى فئرانًا سوداء وقطةً سوداء أكبر ومع ذلك القطعة لا تأكل الفئران بل تصطحبهم لتدخل بيت (هديل) وأن عنكبوتًا كبيرةً ساممةً بشعة المنظر تكاد تكون في منظرها أقرب للعقرب تحاول أن تقرص (هديل) وبالفعل تقرصها في يدها اليمنى.

تقوم هديل ويدها تؤلمها جدًّا وتتصل بأمها وتخبرها بسوء ما

رأت؛ فتطمئنهما أمها وتنصحها بقراءة المعوذتين قبل أن تنام، وأن تأتي لأبيها كي يرقمها وتعدّها (هديل) أن تأتيمهم يوم الخميس ليرقمها أبوها وتبيت معهم ليلتها.

أصبحت (هديل) أكثر ثقلاً وباتت تنام أكثر من قبل، حتى بدأ (خليل) يدخل فيجد (إبراهيم) مفطوراً من البكاء وهديل نائمة لا تشعر به، فكان يوقظها وينبهها أن (إبراهيم) جائع ومرّةً يحتاج ليغير حفاظه، حتى انفجر (خليل) ذات مرة في وجه (هديل) وبدأ يسبها لأول مرة ويتهمها بالإهمال والكسل، فبدأ (خليل) في عيني (هديل) وكأنه ابن برص أسود ضخّم كبير.

أخذت تنظر له وتصرخ بأعلى صوتها، فجاء الجميع يطرقون الباب خشية أن يكون هناك ما أصاب من البيت، فشكى (خليل) لأبيه وأمه والجيران ما يحدث من أول الأسبوع، وكان اليوم هو الأربعاء من الأسبوع، وأنه قد تعب وملّ من كسل زوجته وتغير حالها، وأما عن صراخها فهو تمثيل لما واجهها بإهمالها.

حاول الحاج (صابر) والد خليل أن يقترب من (هديل) ليربت على كتفها ويهدأ من روعها ويسألها عما بها، لكنها ظلت تصرخ بأعلى صوتها وتحتضن في طفلها وهي تنظر بعين يملأها الخوف وغموض غريب باتجاه (أم خليل).

وهنا كانت الصاعقة حيث انتشلت بصعوبة (أم خليل) الطفل

من بين يدي أمه؛ بحجة أنها ليست أمانةً عليه وهي في حالتها تلك، وأخذته من حضنها فزاد عويل وصراخ (هديل) واشتد نسيجها ونحيبها وباتت تهذي بكلام غير مفهوم.

وهنا اتصل (خليل) بأخ (هديل) ليأتي ويأخذ أخته؛ فيبدو أنها جُنَّت أو التبس بها جيّ، وهو لا يقدر عليها وحده وهي في تلك الحالة، خاصةً والناس بات يزعجهم صراخها.

جاء (مُحي) أخو (هديل) ليأخذها، فوجد أخته تبكي وتصرخ وتنظر لابنها، وكأن لسانها معقود، ولكنها ظلت تشاور على ابنها تريده، لكن أباها قام بتكثيفها بمعاونة زوجها وكمموا فمها ونزلوا بها ليأخذها لبيت أبيها، وهناك كان الأب المريض ينتظر ابنته.

أمسك الشيخ (عرفة) بناصية ابنته التي كان من الواضح أن الصراخ أنهكها حد الإعياء، وبدأ يتلو ما تيسر له من آيات القرآن الكريم، حتى وصل لسورة الصافات تحديداً ففاقت ابنته وهي تشكو من صداع وألم فظيع برأسها...

هدأ الشيخ الضير من روع ابنته وناولها كوبًا من الماء البارد قد قرأ عليه آيات الرقية الشرعية، فما أن تجرعت (هديل) حتى تقيأت فزادها الشيخ كوبًا آخر فظلت تتقيأ حتى شعرت وكأنها تُؤلّد من جديد وشعرت بخفة وراحة غريبة وكأنها لم تشك شيئًا، سوى ما بقي معها من بحة في صوتها جراء الصراخ وإنهاك شديد جعل

والدتها تمسك بذراعها متلطفةً وتسندها لتدخل فتغفو قليلاً.

بعد ذلك بدأت (هديل) تسأل عن ابنها (إبراهيم) الذي افتقدته، وبدأ ثديها يدر حليبته حينئذٍ لطفلها الذي لم يُفطم بعد، فطمأنتها أمها أنه بخير مع جدته أم خليل، لكن (هديل) رفضت أن تبات ليلتها بعيدةً عن ابنها وذلك الوخز يكاد يفتك بضرعها حينئذٍ لطفلها، فطلب والدها من أخيها أن يأخذ أخته ولا يتركها إلا بعد أن يطمئن عليها في بيتها.

وصل (محي) لبيت الحاج صابر ومعه أخته المنهكة حد التعب، وما أن وصلا حتى كان صراخ (إبراهيم) يفتك بصدر (هديل) التي نزلت من (التوكتوك) كحمامة فتح القفص عنها توا، فانطلقت نحو الباب تطرقه بكلتي يديها، ففتح (خليل) وقبل أن ينطق كلمةً واحدةً كانت (هديل) مرقت للداخل كالسهم والتقطت طفلها وألقمته ثديها ودموعها تنزل كسياط ساخنة تجلد وجنتيها، وهي تتشمم وليدها وتقبله في جبينه مرةً وفي راحة يده الصغيرة مرةً أخرى؛ فهدأ الصغير ونام ونامت (هديل) هي الأخرى على كنية البيت الكبير دون أن تدري بنفسها.

وأما عن حماها الحاج (صابر) فحاول أن يمسك في (محي) ليبات ليلته معهم لكنه اعتذر لحاجة والده المريض إليه، وقال (محي) أنه سيمر صباحًا ليطمئن على أخته، بينما وقفت أم خليل

والغيظ يأكلها، ولم تنطق ببنت شفة، ولكن يبدو أنها لم تفقد الأمل كلياً في تملك ابنها وحفيدها والذي طالما سولت لها نفسها أنه عوض القدر عن ابنتها التي ماتت...

بل إنها كانت كثيراً تتخيله بنتاً وليس ولدًا وتحادثه كبنت مما كان يثير حفيظة (هديل)، وكثيراً ما كانت تبدي اعتراضها على ذلك وتنبه حماتها أنه من الخطأ أن تنادي الطفل بصيغة المؤنث وتحادثه كأنثى؛ فإن ذلك يؤصل التخنيث لدى الطفل، وكثيراً ما كانت أم خليل تتبادل العراك مع (هديل) وينتهي الأمر بسباب (هديل) ونعتها بأسوأ الصفات.

في الصباح استيقظت (هديل) ورأسها مثلث جداً، ولكنها استغربت أنها في بيت حماتها، وبينما هي تحاول استيعاب الموقف واسترجاع الأحداث دخل الحاج (صابر) وألقى التحية عليها، فردت عليه السلام في رقة، فسألها عن حالها وعن حال (إبراهيم) فطمأنته أنهما في أفضل حال، فسألته إن رغب في الإفطار فتجهزه له فشكرها وقال أنه غالباً ما يفطر بكوب شاي وقطعة كعك، وطلب منها أن تقوم فتجهز لنفسها إفطاراً وتعطه (إبراهيم) حتى تحضر الإفطار لها ولزوجها.

فأعطته (إبراهيم)، فسمى عليه وأخذه فقبله في جبينه، بينما طلبت هي أن تصعد لتحضر الإفطار في بيتها، فلم يجد الحاج

(صابر) بدأ من أن يتركها على راحتها؛ خاصةً بعد الليلة العصبية بالأمس وربما تحتاج لتتحمم وتغير ملابسها فلم يرد أن يرحبها.

استيقظت أم خليل فوجدت زوجها يداعب حفيده في (الفراندة) الشرفة الكبيرة المطلة على الحديقة، فأمعنت النظر لهما طويلاً حتى ذهبت هناك، إلى الزمن منذ عشر سنوات عندما كانت ابنتها الوحيدة تقريباً في نفس عمر حفيدها.

كان الحاج (صابر) يحب ملاطفتها ومداعبتها كل صباح في (الفراندة) وكان خليل يأتي بألعابه ليجلس فيلاعب أخته الصغيرة، وكانت تأتي هي بشطائر الجبن وأكواب الشاي، فتفطر الأسرة الصغيرة معاً دون أن يفرقها شيء، حتى جاء اليوم المشؤوم وكانت الحادثة البشعة فنجا زوجها وماتت طفلتها ذات الأربع سنوات حينها، عندما كانت خارجةً من أحد دروس التأسيس...

وفجأةً امتقع وجه أم خليل وبدأت نفسها تصرخ بداخلها نجا هو وماتت هي، كان بإمكانه أكيد أن ينجبها لكنه بالتأكيد أثر نجاته وأمات طفلته، ثم بدأت تدمع عيناها وهي تنظر إلى (إبراهيم) وتقول: لكن الآن عادت لي ابنتي من جديد ولن أسمح لأي مخلوق أن يفرق أسرتي ويأخذ أحد منها ولو كلفني ذلك حياتي.

وتذكرت أم خليل السحر المتبقي في قارورة السحر فدخلت ونظرت للتقويم الهجري، فوجدت أنه بقي على تمام البدر تقريباً

يومان، ستكون هي فيهما دبرت كيفية رشّ ما تبقى من السحر أمام عتبة ابنها لترحل عنها زوجة ابنها ولكنها يجب أن ترحل هذه المرة بلا رجعة.

في الظهريرة مرّ (محي) على أخته ليطمئن عليها، وبينما هو جالس في بيت أخته إذ رنّ هاتفه وكانت المتصلة (أمه)، فقام (محي) مذعورًا وهو يردد:

– مسافة السكة وسأكون عندكم، ضعي حبة القلب تحت لسانه يا أمي وافتحي النوافذ أرجوك ولا تخافي، سيكون كل شيء بإذن الله على ما يرام.

– خيرًا يا (محي)؟ ماذا حدث طمئني؟!

– أبي جاءتة نوبة القلب ويجب أن أعود للبيت حالًا يا (هديل)، كوني بخير أرجوك.

– انتظر، سأرتدي إسدالي وسأتي معك.

انطلق الأخوان، وما إن وصلا البيت حتى كان النواح والعيويل يملأ البيت، كان اللون الأسود يغطي كل شيء، كانت الخراف الصغيرة التي كان الشيخ الضرير يربها نائمة أرضًا منكسة رؤوسها كأنها مريضة لكن من دون مرض...

كان هناك غيوم سوداء تحيط بدار الشيخ المريض تعلن عن

مطر قريب، مطر في شهر أغسطس! إنه أمر غريب! ظلت هذه الغيمات تعانق نعش الشيخ (عرفة) حتى توارى تحت التراب، مات الشيخ (عرفة) الذي طالما فتح داره لتحفيظ وتلاوة القرآن الكريم، مات وهو يصحح أحد الألواح لطفل صغير.

حاولت (هديل) أن تستوعب موت أبيها، حاولت أن تبتلع غصة الفراق، دخلت فتلمست مكان جلوسه، لم تصدق أنها ستدخل البيت ثانيةً ولن تجده يجلس على كرسيه الكبير، لن تشم رائحة المسك من يده عندما تقبلها، رأت عكازه يقف وحيداً وكأنه يبكي هو الآخر فراق شيخه في ركن الغرفة.

رأت جلبابه مطوياً على رأس سريره وكأنه فقد روحه مع فقد شيخه، كأن هذا الجلباب كانت له روح بالفعل، لكنها كانت موجودةً فقط بوجود الشيخ، وذهبت مع ذهابه، رأت نعليه فأمسكت بهما وأخذت تقبلهما، هذان النعلان اللذان طالما حملاه لصلة الأرحام وإطعام المساكين والسؤال عن الجيران والدخول عليها كل عيد بالرغم من عجزه.

من سيدخل عليها بعد ذلك كل عيد؟! من سيتذكرك يا (هديل) بالسؤال ويؤثرك بالدعاء ويحتويك، من سيكون سنده وظهرك؟  
إنا لله وإنا إليه راجعون، ظلت (هديل) تقولها وتنتحب في نسيج وبكاء حتى كادت روحها تفارقها وتلحق بأبيها.

أفاقت (هديل)، وجدت نفسها ممددةً على سرير أبيها وبجوارها غرايب سود يثرن وتلتوي شفاههن في حركات تومئ بالتصعّب والشفقة عليهما، وبينهم يقف طائر أبيض بيده ورقة وقلم وحول رقبته سماعة، وكأنه بدأ لتوه في إلقاء نصائح وتوصيات هامة لأمها وأخيها، ثم غاب ذلك الطائر الأبيض وبقيت الغرايب، حتى أشار أخوها إليهن بالانصراف كي ترتاح (هديل)، التي يبدو أنها فقدت القدرة على الكلام بشكل مؤقت، ولم يتحرك منها سوى سيول من الدموع الساخنة باتت تجلد خديها، أما بصرها فظل شاخصاً متجهاً لأعلى الغرفة ثابتاً على نقطة بمنتصف سقفها.

قال الطبيب أن (هديل) تعاني من حالة انهيار عصبي لكنه ليس شديداً بأية حال، وأنها ستعافي خلال أيام قليلة، لكن عليهم ألا يثقلوا سمعها بكلمات الموت وفراق أبيها، كتب لها بعض المهدئات العصبية وأعطاهم حقنةً وطلب أن يتركوها لترتاح.

كانت أم خليل تراقب كل ما يحدث في صمت، ثم جاء صوتها أخيراً يقطع الصمت ويقول:

– يجب أن نأخذ (إبراهيم) بعيداً عن هذا الجو الكئيب.

– لكن يا أم خليل، إبراهيم ما زال يرضع ثم أن أمه روحها فيه، وأخذه وهي في هذه الحالة قد يسيء من حالتها.

– إبراهيم أوشك يتمم العامين، ولن يحدث شيء لو فطمناه يا أم مُعي، ثم إن حليب الحزن والنكد لن يفيدته بل قد يضر الولد ويمرضه.

نكّست أم (معي) رأسها قليلاً ثم نظرت إلى ابنها وكأنها تستطلع رأيه؛ ففطن الابن لنظرات أمه وقال:

– الحاجّة أم خليل معها حق يا أمي، إبراهيم سيكون في جو أفضل في بيت جده وجدته، خاصةً وأمه في هذه الحالة.

صُعقت (أم معي) من رد ابنها، بينما ابتسمت (أم خليل) ابتسامة خبث كشفت عن أسنانها الصفراء، وقامت فانتشلت الطفل النائم في حضن أمه، وضمته لصدرها وأخذته وهي تدعي الحزن، وانصرفت.

ظلت (هديل) تعاني من صدمتها لوفاة والدها طويلاً، ومما زاد الطين بلة " أنها أفاقتم فلم تجد ابنها، ولما حاولت أن تستفهم بالإشارة عنه، ادّعي أخوها عدم الفهم، بينما ظلمت أمها تبكي وتنتحب دون أن تجيب ابنتها بكلمة واحدة رغم أنها تفهم كل إيحاءة من الإيحاءات التي تتساءل بها ابنتها عن وليدها.

ومع تجاهل الاستفهامات زاد النحيب، وزادت (هديل) في الصراخ والبكاء، فما كان من أخمها إلا أن يقول أن أخته التبسها

جني وأنه سيحضر شيخًا ليخرج العفريت الملتبس بجسد أخته،  
أيده في ذلك زوجها (خليل) والذي أكد أن (هديل) من قبل وفاة أبيها  
وتصرفاتها مريبة، وأن فقدانها القدرة على النطق لم يكن أبدًا إثر  
صدمتها لوفاة أبيها بل هو انعقاد لسانها بسبب الجني الملتبس بها.

وبالفعل أحضر خليل ومجي دجالًا يدعي أنه يعالج بالقرآن،  
وبدأ يقرأ آيات القرآن بصوت مرتفع مما جعل (هديل) تصرخ  
بصوت عالٍ، فأخذ الدجال يضرها ويقول وكأنه يوجه الخطاب  
للجني الملتبس بها:

– اخرج عدو الله، لقد حذرناك وأنذرناك ونعوذ بالله من أذاك.

ظل الدجال يردد تلك الكلمات، وييده خرطوم صغير، كلما  
صرخت (هديل) يطلب من زوجها وأخيها أن يكتفها ويشبعها ضربًا  
بالخرطوم البلاستيكي، حتى غابت (هديل) عن الوعي؛ فخشي  
الدجال أن يُفتضح أمره فقال في نبرة اليأس وهو يهز رأسه:

– هذا الجني، عشق الجسد، وإنه من خدام الجن السفلي ولن  
أستطيع عليه.

– ماذا يعني ذلك يا شيخ؟! هل معناه أن تظل (هديل) على هذا  
الحال طيلة عمرها؟!

– العلم عند الله يا بني، لكني فعلت ما بوسعي أن أفعله،

وصدقني لن يفعل أحد أكثر مما فعلته أنا، فاستعضوا ربكم.

لم يفهم أحد حجم المصاب الذي وقع على (هديل) بفراق أبيها، لقد كان تعلق (هديل) بأبيها يفوق أي تعلق لبنت بأب، فقد كان الشيخ الضرير صديقًا لابنته، بل كان مدللها، كان سندها، ما كان أحد ليتجرأ أن يحزنها أو يضايقها وهو موجود، خالف كل أعراف القرية وتحمل ثرثرتهم وتركها تكمل تعليمها وتتزوج بمن اختاره قلبها، لم يجبرها يومًا على شيء، رباها على العز والترف قدر ما كان يُتاح له، لم يحرمها أبدًا من شيء، لم يكن يمر يوم إلا وكان يتصل بها مرةً ومرتين ليطمئن عليها.

كان وجود الشيخ (عرفة) بمثابة صمام الأمان وهالة البركة التي تحيط (هديل) بدعواته، كانت تستمد القوة من وجوده بالرغم من عجزه، كانت تشعر وأن جند الله كلهم اجتمعوا في شخص أبيها، فمع ذهابه ذاقت مرارة الفقد، شعرت بكسرة الظهر، وغياب البركة، وانعدام السند؛ فكان هول ذلك كله عليها كافيًا ليذهب بعقلها لا بطلاقة لسانها فقط...

مع الأسف، لم يظن الأخ الجاهل ولا الزوج السلبي لذلك، بل اتجهوا لطريق الدجل والمشعوذين فما سمعوا بمعالج هنا أو فاتح لكتاب السحر هناك إلا وذهبوا إليه، وأهملوا الأدوية التي كان الطبيب قد كتبها لهديل؛ ظانين أن هذه الأدوية ستسبب لها الإدمان

وستكون سببًا في تدهور حالتها، ظلت (هديل) تتجرع كؤوس العذاب ضربًا من هذا الشيخ، وتعذيبًا من الآخر وكلُّ بات يجرب فيها حتى أُنهكت قواها، وكلما أفاقَت تشير وتتساءل في إيماءات استفهامية عن ضناها، عن طفلها الوحيد (إبراهيم) لكن، لا مجيب!

ظل الأمر هكذا شهورًا، إلا أن جاءت الصاعقة الكبرى والطامة العظمى، ورقة طلاق (هديل).

طلّق خليل (هديل) تحت ضغط شديد من أمه، التي ظلت تهدده بأنها ستغضب عليه بقية عمره، وتارةً تستجديه وتستعطفه بأن يرحم الطفل الصغير ابنه من أم مجنوننة، نعم صارت لهجة الحمأة وزوجها الذي انضم لحزبها ولم يكن قادرًا كعادته على معارضتها بأن (هديل) جُنّت ويجب ألا تربي (إبراهيم) ولا أن تبقى على ذمة خليل لحظةً واحدةً، ومع تكرار الزن وقديمًا قالوا الزنّ على الأذن أمرٌ من السحر، انصاع خليل لرغبة والديه وطلق (هديل).

عندما تسلمت (هديل) ورقة طلاقها؛ كأن جزءًا من وعيها بدأ يعود ويتسرب إليها رويدًا رويدًا، ولأول مرة منذ شهور انفكت عقدة لسانها في وهن وقالت:

– ابني، أريد ابني يا أمي.

ردّ أخوها في تعجرف:

– وهل سنربي لهم ابنهم، والله ما يحدث ذلك أبداً؛ اتركه لهم، وسيأتيك من هو خير من خليل وستنجبين من هو أفضل من (إبراهيم)، لكن طالما طلقك وأنت في مرضك هكذا، لن نربي له ولده.  
بكت (هديل) وانتحبت وزاد نسيجها، ولكن لم تستطع الأم أن تعارض ابنها ولا أن ترد لبنتها طفلها، بل كل ما استطاعت أن تفعله أن ازدادت بكاءً على بكاء ابنتها.

وفي يوم من الأيام تسلمت (هديل) خفيةً، وخرجت تجري حافية القدمين متجهةً نحو دار حماتها والتي تبعد عن بيت أبيها بما لا يقل عن 3 كيلو مترات، أخذت (هديل) تركض بعزم ما فيها من قوة، وما إن وصلت دار حماتها حتى أخذت تطرق الدار بكلتا يديها.

فتحت الحماة، فصُعِقَتْ لما رأت (هديل) حافية القدمين، عارية الرأس من الحجاب، وتبكي وتسقط عند قدمها تتوسل أن تعطيها ابنها، أطاحت الحماة (هديل) بقدمها وقالت في قسوة وغلظة:

– ليس لك أبناء هنا، وهذا البيت لا تعودى إليه مرةً ثانيةً.

بكت هديل، وازداد النسيج والنحيب والصراخ، حاولت أن تدفع حماتها وتدخل لترى ابنها، وتلتقطه فتلقمه قبلات، وتشم رائحته، وتهدهده، وتحضنه ولو لآخر مرة، لكن الحماة كانت أعتى

وأقوى؛ خاصةً وهديل أعيائها ما كان يحدث فيها من قبل ونزل وزنها إلى النصف، فدفعتها الحمأة في قسوة وظلت تضربها وتسحلها من ذراعها على سلم الدار وطول الممر الممهّد في منتصف الحديقة المفضية لباب الدار، ثم فتحت البوابة الكبيرة وألقت بها خارج الدار، وأغلقت الباب الكبير بالقفل، فأخذت هديل تزيد الصراخ تبكي وتلتحب، وتعيد: «حسي الله ونعم الوكيل، أريد ابني، اعطوني ابني.»

اتصلت أم خليل بزوجها تستنجد به أن يأتي قبل أن يأتي (خليل) ويرى طليقته فيحن قلبه، ثم قام هو بدوره بالاتصال بأخ (هديل) وهدده أن يبلغ الشرطة في حال تهجمت أخته مرةً ثانيةً على بيته، فجاء (محي) وقام بمساعدة ابن عمه بتكثيف (هديل) وأخذها في سيارة لكن هذه المرة انطلقوا بها نحو مصحة نفسية؛ امتثالاً لنصيحة ابن العم الذي قال أن (هديل) تحتاج لعلاج نفسي وإلا جلبت لهم مزيداً من الفضائح.

وهناك في مصحة (جوانتانمو) لا يمكن أن تُسَمَّى بغير ذلك فهي لم تكن أبداً للعلاج النفسي بل للتعذيب، تلقت (هديل) صفعات وصعقات كهربائية شديدة، كان صراخها يفتك بقلب الحديد لا الحجر، ظلت (هديل) تتلقى العلاج النفسي الكهربائي، وإن شئت قل التعذيب النفسي طيلة شهر كامل، خرجت بعده شبح أنثى لا

امرأةً أبدًا، المهرة بركت وسقط عنها نصف شعرها وغاب عنها ثلاثة أرباع وزنها، فبقي منها شبح.

ترك الشيخ (عرفة) قطعةً من الأرض حوالي ثلاثة أفدنة غير البيت اللبن الذي كان يعيش فيه مع أسرته، وطوال حياته ما حرم فقيرًا مما تفيء على تلك الأفدنة من ثمار أو محاصيل حتى وإن كانت قليلةً.

اشتد نزع زوجة المرحوم (عرفة) الحاجة أم (محي) حتى أنها باتت ليلتها تهذي بكلام غير مفهوم، بدت وكأنها تحدث زوجها وأمها وأباها، وتقول لهم إن الفطير قد طاب وستحضره لهم وتأتي لتأكل معهم، لكن ستحضر قليلًا من العسل الأبيض، فالشيخ (عرفة) يحبه، ثم أغمضت أم محي عينها ولم تفتحهما بعدها، وهناك دُفنت كما أوصت لحدًا بجوار زوجها، ليعود بعدها (محي) مترنًا حزينًا لا يعرف ماذا سيفعل ولا كيف سيتصرف وهو الذي زواجه بعد أسبوع.

بقي كذلك حتى شعر بيد ضعيفة هزيلة تربت على كتفه وراحت تنظر إليه في حنان، لكنها لم تكن تنطق وكأنها فقدت لسانها مرةً أخرى ودفنته مع والدتها، كانت يد (هديل)، نظر إليها (محي) لكن كانت نظرتة مختلفةً كأنه يقول لنفسه وماذا سأفعل بك ومعك أنت الأخرى، ما كنت لأنقصك وينقصني جنونك، لكنه أمسك بيد

أخته وأنزلها من على كتفه وربت عليها في برود.

تزوج (محي) دون زغاريد ولا زينات، ودخلت زوجته أولى ليلاتها بالبيت لتجد (هديل) تبتسم في وداعة وقد جلست بجوار باب غرفتها المواجهة لغرفة العروسين تنتظر قدومهما لتبارك لهما بعينها الحانيتين دون أن يستطيع لسانها التعبير، لكن يبدو أن العروس لم ترتج لوجود (هديل) فنظرت باستعلاء واقتضبت وحملت طرف فستانها ودخلت غرفتها دون أن تصافح يد (هديل) التي امتدت ترتعش لتصافحها.

بعد قليل خرج (محي) وطرق باب غرفة (هديل) ففتحت له وفرحت ظانئة أنه جاء يطيب خاطرها؛ لكن ما كان منه إلا أن طلب منها أن تذهب فتيات ليلتها عند بيت عمها بالجوار.

صُدمت (هديل) أول الأمر ثم ابتلغته بغصة ونكست رأسها، وذهبت تطرق باب عمها لتبات عندهم أسبوعًا وليس ليلتها فقط.

سمعت (هديل) أباها يتحدث مع عمه وأولاد العم في شأن ضرورة إيداعها المصححة النفسية من جديد؛ ففي ثوانٍ فُتحت كل ملفات التعذيب في عقلها الباطن، تذكرت جلسات الكهرباء، صعقات الماس الكهربائي، ضرب الممرضين لها، هذا يصفعها على وجهها وهذا يمسك بتلابيب شعرها، فجاء شعرت (هديل) بالأرض، تتعلق مكان السماء، كأن السماء نزلت للأرض، وجدت الحوائط

تدور وتدور وهي تدور معهم، وبدلاً من أن تقع أرضاً...

ركضت، ركضت (هديل) بعزم ما فيها، ركضت نحو المجهول، لم تعرف إلى أي وجهة تتجه، لكنها ركضت، ركضت ولم تشعر بنفسها إلا في اليوم التالي وبجوارها سيدة مُسننة يبدو من ملامح وجهها الطيبة والوضاءة، ترفع أكف الضراعة لله حمداً على سلامة (هديل).

— حمد لله على سلامتك يا بني، لا تخافي، أنا خالتك (حليمة) أجلس وحدي في هذه الدار الكبيرة بعد أن تُؤيِّ عني زوجي، ولم يرزقني الله بأولاد، لكن كل أبناء العباد أبنائي، ووجدتك مغمياً عليك أمام الدار ليلة أمس، فأعانني الله وحملتك للداخل وغسلت لك وجهك وما استطعت من يديك ورجليك، وسامحيني لو ألبستك جلباباً من ملابسي؛ فقد كان جلبابك مهترئاً ومتسخاً، هل أنت بخير يا بنتي؟!

أومأت (هديل) برأسها أن نعم، أنها بخير.

ناولتها السيدة (حليمة) كوباً دافئاً من الحليب وقطعةً من الكعك، ازدردتهم (هديل) في نهم وكأنها لم تذوق الطعام منذ أيام. أمسكت السيدة (حليمة) بعد ذلك بمصحفها الأخضر، واتشحت بحجابها الأبيض، وفتحت على سورة (النور) وراحت تقرأ

بصوت عذب جعل دموع (هديل) تسيل، لكنها هذه المرة كانت دموعاً ناعمةً نقيّةً غسلت (هديل) ذكرتها بنفحات البركة التي كانت تحيطها أيام أبيها، فاعتدلت في جلستها، وظلت تستمتع في خشوع لآيات الرحمن بالصوت الملائكي للسيدة (حليمة) وكأن الله أعطها مزاراً من مزامير نبيه داوود.

بعد أيام قليلة بدأت (هديل) تتعافى، بدأت تستوعب أين هي ففهمت أنها ركضت حتى مرت بعزبتين بعد العزبة التي كانت تسكن فيها، وأنها في بيت السيدة (حليمة) وهي سيدة مُسنة عاقر لم تنجب، لكن بالفعل كل أبناء العزبة يحبونها ويعاملونها كأولادهم.

ومع تسرب مشاعر الدفء والأمان والطمأنينة لنفس (هديل) بدأ لسانها يعود لينطق ببضع كلمات، أولاً رددت آيات القرآن وراء السيدة (حليمة)، ثم بدأت تنطق ببضع كلمات، ثم تبادلت أطراف الأحاديث فوجدت أن السيدة (حليمة) تصلها بأمها صلة قرابة بعيدة، فازداد اطمئنان (هديل) وباتت تحكي قصتها للسيدة (حليمة) التي وعدتها ألا يتعرض لها مخلوق بأذى طالما هي موجودة على ظهر الدنيا، لكن يجب أن تخبر أخاها بمكانها الجديد، فبال تأكيد أنه يبحث الآن عنها في كل مكان.

سألته إن كانت ما زالت تحفظ برقم هاتف أخيها، فأجابت (هديل) على الفور بنعم، وطلبت بأنامل مرتعشة الرقم للسيدة

(حليمة) وأعطتها الهاتف، فتحدثت السيدة مع الأخ الثائر الهائج الذي بعد سكينه وثبات السيدة ما عاد هائجاً، بل هدأ وسكن كطفل صغير ووعد بزيارة سريعة.

لم يلبث الأخ إلا سويعات قليلة حتى جاء ليطلق باب السيدة (حليمة)، وما إن دخل حتى اختبأت (هديل) خلف ظهر السيدة في حركة طفولية بريئة؛ فأمسكت السيدة الحنون بذراعها وربتت على ظهرها وأجلستها بجوارها ونظرات ثبات تطمئنئها.

– متشكر يا خالة لاستضافة أختي المريضة ورعايتها هذه الفترة لكن لا بد أن أخذها الآن فأختي تحتاج للعلاج، والمصححة أفضل مكان لرعايتها خاصةً بعد وفاة أمتنا.

– لا شكر على واجب، أنا أعتني بابنتي التي وهبني الله بها على الكبر كما وهب سيدنا زكريا ابنه، أما عن كون (هديل) مريضة وتحتاج للعلاج؛ فوالله يا بني أجد أن قلبك هو من بحاجة للعلاج؛ أمن أجل الميراث وحفنة رمال ستتحول لها يومها تلقي بأختك بين براثن التعذيب والتهلكة؟!

– يا خالة!

– اسمعني جيداً يا بني، أنت بذرة لرجل طيب، وهب عمره كاملاً لتحفيظ وتدريس كتاب الله، فراع الله في رحمك واتق الله في أختك،

وإذا كنت أتياً لتلقي بأختك في المصححة من أجل أن تستولي على ميراثها فسأدع أختك بنفسها تحدثك، بعد أن أعانني الله اليومين الماضيين وقبل أن أتصل بك قد آتتني كل أخبارك من أبنائي أحبائي ممن هم في مثل سنك، لكن قلبهم أرق لنا من قلبك، اسمع يا بني أختك المريضة ماذا ستقول لك، ثم الحكم لله بعدها ثم لك.

تلعثمت (هديل) وتفصد جبينها عرقاً، وظلت تشبك أناملها وتفرقهم، حتى جاءت ربتة من السيدة (حليمة) ونظرة حملت كل معاني القوة والحنو في آن واحد لتشجعها أخيراً على الحديث، فقالت وهي تبتلع ريقها:

– (محي) ميراثي من أبي، أشهد الله أنني لم ولن أطلبك به، فهو معك بمثابة أمانة إن شئت أن تأتيني بريعه فأنت أهل لذلك، وإن لم تشأ فالله يسامحك ولن أقاضيك، فكيف أقاضي من يجري في عروقه ما يجري في عروقي، كيف أقاضي ظهر أبي وصلبه؟! أما عن رجوعي للعيش في بيت أبي فقد استغنيت عنه بالعيش مع السيدة (حليمة) والتي استطاعت بفضل الله ثم اتصالاتها بأحبائها أن تتوسط ليعيدوني لعملي بعد إيقافي عنه، ويوم السبت القادم بإذن الله سأمتثل لتحقيق روتيني أمل أن ينتهي بعودتي للعمل، وبالتالي سأصرف منه على نفسي ولن أكون في حاجة لأحد بفضل الله، وبالتالي فالبيت كله لك وأنا مسامحة في حقي فيه بطيب خاطر

إكرامًا لأبي وأمي رحمهما الله وحتى لا يُقال أولاد الشيخ (عرفة) تنازعوا حطام الدنيا بعد موته، لكن أرجوك اتركني أعيش في أمان هنا مع السيدة (حليمة)، كنت أود أن أطلب مساعدتك في أن أسترجع ابني لكن أعلم أنك لن توافقني، لكن على الأقل أرجوك اتركني أعيش ما تبقى لي دون تعذيب في أمان مع السيدة (حليمة) التي عوضني الله بها عما حُرمت منه، وأعدك ألا أضايقك عمري.

فرت الدموع من عين (محي) بينما سالت أودية من عيون السيدة (حليمة) و(هديل)، حاول (محي) أن يمتلك رباطة جأشه، وأن يتمالك نفسه فقام وقَبَل جبين أخته، وقال والدموع تتحشج في حلقة:

– سأتي كل حين لأطمئن عليك، كوني بخير.

تنفست (هديل) الصعداء بعد خروج أخيها، وارتمت في حضن السيدة (حليمة) وأخذت تبكي حتى غفت وهي على صدر السيدة وكأنها طفل صغير.

جاء يوم التحقيق، خرجت (هديل) من غرفة التحقيق وجبينها يقطر عرقًا وتمسحه بمنديل ورقي، بينما جلست السيدة (حليمة) تغالب قلقها، وتحاول أن تطمئنها بأن المحامي سيخرج الآن ويفيدهم بخبر رجوعها للعمل.

كانت هديل مشتاقةً كثيرًا للصف الدراسي أكثر من احتياجها للعائد المادي، كانت ستري في الطلاب الصغار عوضًا ولو مؤقتًا عن ابنها، كانت ستبادلهم الحب والمودة ولحظات الفرح، كانت تنوي أن تحضر شطائر إضافية في حقيبتها مع بداية الدراسة لتعطي الجائع منهم، وتخبي بالونات فتفرح الحزين منهم، وتحمل كتبًا وقصصًا لتسري عنهم وتشحذ همهم...

كان لديها الكثير والكثير، حتى قطع خيالها المحامي بثيابه السوداء وفي يده ملفات وعلى أنفه نظارة ضخمة ويفتعل ابتسامًا ويقول:

– مبارك؛ هديل ستحصل على راتبها كاملاً وهي مرتاحة في البيت.

صُعقت (هديل) بما قاله المحامي، وقالت: كيف ذلك؟! أنا لا أريد راتبًا، أنا أريد أن أعود للتدريس.

ردت السيدة (حليمة) انتظري يا (هديل) لنفهم من الأستاذ (عشماوي) كيف ذلك يا أستاذنا يعني؟! كيف ستحصل (هديل) على راتبها وهي في البيت لا تعمل؟!!

أجاب المحامي وهو يرفع نظارته فوق أنفه ويدفع بها لعينيه:

– رفضت الإدارة عودة (هديل) للتدريس، يبدو أن أحدهم

سبقنا وعلم بما نسعى له وقدّم ما يفيد بمرض هديل النفسي وأنها سبق ودخلت مصححةً نفسيةً، فبعد محاورات ومداولات وجولات وصولات مني وافقوا طبقاً للاتحة رقم (...) أن تحصل هديل على راتبها لكنها تُعامل معاملة المرضى المزمنين، ولن تعود للعمل داخل الفصول لأن ذلك يعرض حياة الطلاب للخطر، وطبعًا وفقًا لما قدمه المؤذي الذي سبقنا بشكوى مدعمة بصور من ملف (هديل) الصحي.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، من هذا المؤذي الذي يكن كل هذه الضغينة وكل هذا السواد لهديل؟! ومن أين أتى بتلك الصور وكيف؟! لعله خير يا رب والخيرة فيما اخترت.

قالت السيدة (حليمة) تلك الكلمات وهي تضرب كفاً على كف، ثم أمسكت بعكازها واستعدت للقيام.

حاولت السيدة (حليمة) تهدئة (هديل) التي ما إن وصلت إلى البيت حتى انفجرت في وصلة بكاء ونحيب لأنها لن تعود للتدريس، وهذا قمة الألم بالنسبة لها؛ ناهيك عن شعورها بالدونية وهي ترى كلمةً تحرج المحامي في نطقها عنها، وإن قالتها عيناه بأن المحققين غالبًا ما قالوها وأعادوها كثيرًا بأنها: مجنونة!

يا الله! (هديل) المهرة العربية الأصيلة التي كان خيرة شباب البلد يتهافت على نظرة من عينها، وجُلّ مدرسي القرية يتنافسون على

إلحاقها بفصولهم وهي طالبة لذكائها ونبوغها وفصاحتها ورجاحة عقلها... الآن يغمغم الجميع بأنها مجنونة.

— ولكن من مصلحة من يا أمي أن يُقال عني مجنونة؟! من الذي يضمري كل هذا السواد وأنا التي ما كرهت أحدًا في حياتي ولم يعرف قلبي سوى الحب؟!

— اهديني يا (هديل) كل شيء مخبأ؛ اليوم غدًا تشرق عليه الشمس ويصبح مكشوفًا، قومي يا بنتي فتوضئي وأمسكي بكتاب اللطيف الخبير واقربي ما تيسر من سورة (الرحمن)؛ ترحم ضعفك، بينما سأقوم أنا لأسخن الغداء الذي قمنا بتجهيزه صباحًا قبل أن نذهب للتحقيق.

أشرقتم شمس اليوم التالي حاملةً معها الكثير.

لم تكن أم خليل لتهدأ ولا لتسكن طالما (هديل) ما زالت قيد الحياة، انتهزت (أم خليل) ما حدث بين (هديل) وأخيها، واتصلت بـ(مجي) بعد أن علمت بزيارته للسيدة حليلة، وفي القرية لا يخفى شيء على أحد؛ وخبر كاختفاء (هديل) ثم إيجادها لن يخفى على أحد بالتأكيد...

اتصلت به وطلبت منه أن يحضر إليها لأمر مهم جدًّا، وهناك استخدمت أم خليل كل أساليب الدهاء والمكر في إقناع (مجي)

بضرورة ألا تعود (هديل) للعمل وإلا ستقوى شوكتها وبالتالي سيأتي اليوم الذي تقف فيه على رجلها ويصبح لديها المال الكافي لتقاضي أخاها وتطالب بميراثها.

تردد (محي) بدايةً وحاول أن يستبعد ذلك عن فكره؛ خاصةً وأن أخته أظهرت صفاء سريرتها وأقسمت ألا تقاضيه وألا تطالب بميراثها أبدًا، لكن ما إن حمل (محي) معه تلك الإرهاصات والأراجيف والفوضى الفكرية لبيته حتى حسمت زوجته كل شيء ووضعت كل شيء، لكن ليس في مكانه الصحيح، وضمت صوتها لصوت إبليس وأقنعت زوجها بضرورة أن يضع يده في يد أم خليل حتى لا تعود أخته لعملمها؛ وإلا سيأتي اليوم وتأتي أخته وتطالب بنصيبها في دار أبيها ووقتها ستتركه هي بلا عودة حاملَةً في أحشائها بذرتة التي بدأت تنمو منذ شهر واحد.

وهكذا أمد (محي) أم خليل بصور الروشتات والتقارير الصحية لهديل والتي تثبت أنها سبق وأودعت مصحةً نفسيةً وتعرضت لأزمة نفسية شديدة، وبدورها استغلت أم خليل كل هذا في تهيج بعض أولياء الأمور من أصحاب المصالح والذين غالبًا يستأجرون بيوتًا في عمارة زوجها وجعلتهم يقدمون شكاوى مقدمًا ضد (هديل) مطالبين بعدم رجوعها للعمل لأن في ذلك خطورة على صحة أبنائهم النفسية، بل وخطورةً على حياتهم من معلمة مجنونة.

علمت السيدة (حليمة) بكل ذلك من أحبائها الذين لا يبخلون عليها بأي طلب تطلبه منهم، وأتوا إليها بالأخبار، وجميعهم تقريبيًا ومع اختلافات بسيطة في الروايات أكدوا ما سبق، فترددت السيدة (حليمة) في إخبار (هديل) في بداية الأمر، لكنها حسمت أمرها بضرورة أن تبلغها وأن تقوي من ضعفها وتخفف من صدمتها بقصة سيدنا يوسف مع إخوته.

وبالفعل، وبالرغم من صدمة (هديل) بما نقلته لها السيدة (حليمة) إلا أنها قررت أن تكون قويةً، وألا تستسلم وألا تتخلى عن حلمها في التدريس، اختلت (هديل) بنفسها قليلًا وذهبت لتسقي بعض الأزهار في حديقة الدار وتغير ماء القدور أمام الدجاج الذي تربيته السيدة (حليمة) وأخذت تفتت بعض لقيمات تطعمها للحمام الذي بدأ يسبح حامدًا لله وحاطًا على كتفها...

وفجأةً قامت (هديل) ورمت كل ما في حجرها من خبز مفتت للطيور وركضت حتى طار الحمام مفزوعًا، دخلت (هديل) الدار فوجدت (السيدة حليمة) ممسكةً بسبحتها ذات الألف حبة وكأنها بدأت لتوها وردها في الصلاة على الحبيب محمد رسول الله (ﷺ)، فجلست (هديل) على ركبتيها وأمسكت بيدي السيدة (حليمة) وقالت وعيونها تلمع فرحًا:

– وجدتها يا أمي، وجدتها أخيرًا، سأعاود التدريس، سأحقق

حلمي، سأثبت للجميع أنني لست مجنوناً، سأعيد إحياء ما دفن مع أبي، والفضل لله ثم لك.

ابتسمت السيدة (حليمة) ورفعت طرف حجابها الأبيض ووضعت في حركة عفوية خلف عنقها وقالت: كيف يا ابنتي، زيديني فرحاً؟!

— سأفتح كتاباً صغيراً هنا في حديقة الدار، وطبعاً في قريتنا هذه لا يعرف أحد بقصة علاجي ولا بدخولي سابقاً مصححةً نفسيةً، سأدخل في جمعية شهرية بنصف راتبي ولن أفصح عن حلمي لأحد غيرك، حتى يكتمل لدي المبلغ الذي يكفيني لإعداد المكان بالكراسي والسبورة وبعض المصاحف الصغيرة والكتب والأقلام، وسأحضر أيضاً بعض الهدايا والمفاجآت لطلابي، وسأحفظ كتاب الله مجوداً وبالأحكام، وأحاديث رسول الله فأنا أحفظ مسند الإمام أحمد كاملاً عن أبي، وأحفظ رياض الصالحين، وأعلم في فترة مسائية — إن وافقت — نساء القرية القراءة والكتابة وإن أردن أحفظهن أيضاً القرآن، فما رأيك؟!

— موافقة طبعاً، وهل في ذلك شك! لقد كان حلمي منذ صغري — سبحانك ربي — ولقد تحقق على يديك، يسخر الله الطيبين ليكونوا جنداً لبعضهم ولا يعلم جنود ربك إلا هو، تأتي في هذه الحياة لتتكامل وتكمل بعضنا، والله ما خلقنا أبداً لتنتصرع

ونتخالف، ففي اختلافنا اكتمال لمن كان عنده قلب، لكن مشروعًا كهذا يستدعي تصريحًا من الأمن، وقتما يتدبر لدينا المال الكافي لافتتاحه سييسر الله لي ذلك فلا تقلقي، فأحباب أمك (حليمة) كثر وجند الله أكثر، ولا يعلم جنود ربك إلا هو.

لكن يا بنتي استعيني على حلمك بالصبر والكتمان، وأنا يدي بيدك وقلبي يحتوي قلبك، وإن وضعت 10 قروش سأضع معك 10 جنيهات، فالتجارة مع الله رابحة، وربح البيع إن شاء الله، وبإذن الله نفتح المشروع على رمضان القادم وتكون البركة بركتين.

أتى شهر شعبان واقترب من النصف، وبينما (هديل) تعد وتجهز لليلة النصف التي توزع فيها السيدة (حليمة) كما اعتادت أكياسًا بها حلوى وبعض مستلزمات البيت الأساسية، وكانت (هديل) تقف بنفسها لتسلمها من أول النهار حتى يأتي الليل فتُقام مائدة كبيرة عامرة بأصناف الطعام مما لذ وطاب وتُفرد في حديقة دار السيدة حليمة ويُدعى إليها جميع أهل القرية تقريبًا.

وكانت السيدة تشرف بنفسها على ذبح الخراف في ذلك اليوم وتقوم هي بتسويتهم على طريقة (المندي) العربية والتي كانت قد تعلمتها حينما سافرت مع زوجها في زمن مضى إلى الخليج.

وكانت السيدة تقوم بشيء طريف وجميل جدًا في ذلك اليوم، حيث كانت تعمل مائدةً منفردةً للأطفال، وتصنع لهم أطباقًا شهيةً

وحلوى خبيصًا مصممةً بطريقة لافتة على أشكال الشخصيات الكرتونية التي يحبونها، وتقوم بنفسها بالتأكد من أن جميع الأطفال أكلوا وشبعوا فقيرهم قبل غنيمهم وضعيفهم قبل قويهم، فكان الأطفال ينتظرون ذلك اليوم بفارغ الصبر، وعند الليل يقوم الشيخ (مصطفى السباعي) بمدح النبي محمد (ﷺ) وإنشاد أعذب الأناشيد في عشق الله، ومدح رسول الله وآل بيت رسول الله (ﷺ).

انقضت ليلة النصف مع دعوات الناس للسيدة (حليمة) ول(هديل)، وقاموا إلى بيوتهم فرحين ثملين من دون خمر في عشق رسول الله وحب الله، ومحمّلين بروحانيات عالية تمدهم بطاقات عالية كافية ليقوموا يومهم الثاني وبقية الشهر، بل واستقبال شهر رمضان الكريم بشوق وحماس.

مرت الأيام سريعًا وجاء شهر الكرم، شهر الإحسان، شهر رمضان، وكانت الفرحة بقدمه فرحتين، حيث افتتحت (هديل) بمساعدة السيدة (حليمة) مشروعها الذي استطاعت الأخيرة أن تستخلص لها كل التراخيص اللازمة لافتتاحه بعلاقتها الطبية وبفضل الله وحواله قبل كل شيء.

وبدأ الناس يقبلون فرحين يأتون بأطفالهم ل(هديل) لتحفظهم القرآن الكريم، وتلقنهم الحب والخير والجمال، ومن بين الأطفال كانت هناك طفلة جميلة القسما ذكية بل متقدمة الذكاء، لبقة

اللسان عذبة، تُسَمَّى (بيان)، كانت هذه الطفلة هي الأقرب لقلب (هديل)، كانت هديل ترى فيها نفسها وهي صغيرة.

كانت الطفلة شديدة التعلق بـ(هديل) حتى أن عمتهما إذا ما جاءت لتأخذها بعد انتهاء الدرس كانت (بيان) تودع (هديل) بالدموع، ولا تكاد تريد أن تفارق حضن (هديل)، كانت لا تجلس إلا على رجلي (هديل) ومهما حاولت (هديل) أن تجلسها بالصف مع زملائها كانت الطفلة ترفض وتبكي بشدة، فما كان من (هديل) إلا أن تحملها قليلاً بعد الدرس على رجلها حتى تأتي عمتهما وتأخذها بصعوبة.

تعلقت (هديل) بـ(بيان) كثيراً، وكان حديثها كله بعد انتهاء الكُتّاب عن شقاوة (بيان) وذكائها وفطنتها وسرعة بديهتها ولباقتها وخفة دمها، مما كان يجعل السيدة (حليمة) تبتسم وهي ترى (هديل) بدأت تقوى شيئاً فشيئاً، وتستعيد رونقها وصحتها النفسية واتزانها، وأن الله أرسل لها فكرة الكُتّاب في هذا الوقت ليسلمها ويسري عنها في كل ما فاتها، وظنت السيدة (حليمة) أن (بيان) أنست (هديل) ولو بشكل مؤقت موضوع رفع قضية حضانة ضم ابنها، لكن (هديل) فاجأتها بسؤالها:

— ألم يقل المحامي شيئاً بخصوص قضية حضانة (إبراهيم) يا

أمي؟!

– لا يا بنتي، لم أتصل به، ولم يتصل هو، انشغلت بتجهيزات الشهر الفضيل، وظننتك انشغلت بمشروعك عن ذلك.

– وهل تنشغل الأم بالتنفس الصناعي عن رثتها الطبيعية؟!

– الصبر يا هديل، بعد العيد – بإذن الله – سأعاود الاتصال بالمحامي، وسيكون كل شيء يا ابنتي كما تتمنين.

– العيد سيأتي وكل الأمهات تحمم أبناءها، تحتضنهم، تقبلهم، تلبسهم حلثهم الجديدة وتعطهم العيدية، إلا أنا سأظل أنظر من بعيد، من خلف شاشات الهاتف عبر مواقع التواصل أتلهف أن ينزل (خليل) صورةً جديدةً لابني، فأحمل هاتفي بين أناملي وأقربه فاحتضنه وأشم فيه رائحة (إبراهيم) وأقبله ودموعي تجلديني، لكن لعل الله يبشرني بما يفرحني بعد صبري.

مرت أيام رمضان المبارك سريعاً، وهكذا هي كل الأيام المباركة، تمر مرق السهم، لا نشعر بحلاوتها حتى نشعر بفراقها، قامت (هديل) على تكبيرات (السيدة حليمة) متزامنةً مع تكبيرات مسجد القرية، ففتحت نافذة غرفتها فكان الفجر ما زال ينبثق من بعيد.

بالرغم من أن كل ما في هذا اليوم يقول أنه عيد سعيد إلا أن (هديل) قلبها مشطور محسور، وروحها حزينة، وصدرها ينهه، يبكي وينتحب وينشج، وإن كانت عينها لم تأذن بعد بسقوط الدموع،

بدأت (هديل) تتخيل لو أن (إبراهيم) الآن وعمره أصبح ثلاث سنوات معها، يناديها بأمي هيا، ألبسيني ملابس جديدة، ويجري على أبيه يوقظه ويمسك بيده ويجرها بيديه الصغيرة ليقوم فيذهب معاً لصلاة العيد، ويفتفت الكعكات على السجاد المغسول فتزعج (هديل) وقبل أن تصرخ في غضب تتذكر أنه عيد ويجب أن يكون سعيداً.

لكن ليس هنا (إبراهيم) وليس هناك (خليل)، فكيف سيكون العيد سعيداً، وأخيراً أذنت العيون بسقوط الدموع فنزلت سيول غسلت قلب (هديل) فارتاحت نوعاً ما، ثم تذكرت لطف الله ورحمته بها أنها الآن ما زال لديها أمل في استرجاع ابنها وأنها تعرف مكانه وأنه في مكان أمين حتى وأنه ليس معها، فهناك آلاف الأمهات المعذبات التي اختطف منهن أبناءهن فهن المحسورات حقاً...

ثم ألقى ببصرها بالداخل فرأت السيدة (حليمة) بجلبابها الأبيض النقي وحجابها الفضفاض ووجهها الوضاء وسماحتها وحنوها؛ فمسحت دموعها وحمدت ربها فغيرها لوحده يواجه بمفرده معركة الحياة بينما جند الله لها تلك المرأة الحنون المؤمنة لتشدد من أزرها.

أعدت (هديل) براد الشاي وأتت بالكعكات المرشوش عليها السكر الناعم، وخرجت في الحديقة فوجدت السيدة (حليمة)

تجلس وحولها بعض نسوة القرية، وفجأة سقطت الصينية التي تحملها (هديل) في حركة مباغطة كرد فعل لما سمعته.

فقد سمعت امرأة تقول للسيدة (حليمة) أنها متأكدة، فسلفتها تكون أخت العروس، واللييلة سيدخل (خليل صابر) على أخت سلفتها التي سبق وطلّقت مرتين وأخذت ما وراء زوجها وما أمامهم، والغريب أن سلفها نفسه أيضًا طلق سلفتها تلك لأنهم أناس طماعون لا تكفيهم مؤونة ولا يملأ أعينهم (جُرْن)، ومع ذلك وبالرغم من أنها سمعت أن الحاج (صابر) غير موافق على زواج ابنه من تلك المرأة، لكن أمه شجعتة لأنها تقول أنه لن يغرم في زواجه منها شيئًا وأنها ستأتي على فرش زوجته السابقة المجنونة، وأن أخت سلفتها وافقت على ذلك، ولكن سمعت أيضًا أنهم كتبوا قائمة منقولات بكل شيء ومع ذلك لم تعارض الحاجة (رّية).

(هديل) بمجرد سماعها (خليل) ودخلته على فرشها حتى سقطت منها الصينية وكاد يغشى عليها لولا أن السيدة (حليمة) قامت بثقل لفورها وأسندتها بمساعدة النسوة، وأجلستها وأسقتها ماءً ممزوجًا بماء الزهر، فارتوت وتماسكت قليلًا، فنظرت لها السيدة في حنو وتثبيت، ففهمت (هديل)، واعتذرت، وقالت أنها لم تتناول عشاءً كافيًا أمس ولم تفطر، فداخت غصبًا عنها، ثم عزمت على النساء بالإفطار فشكرنها وعندما اطمأنت النسوة عليها

استأذن بالانصراف، بينما ارتمت (هديل) في حضن السيدة (حليمة) وواصلت البكاء وكأنها لم تبك منذ سنين.

طرقت الحاجة (ريّة) بيت ابنها (خليل) العريس الجديد كثيرًا لكن دون إجابة، وكأن من بالداخل من أهل الكهف، فنزلت للمرة الثالثة لبيتها تغمغم وتسب وتلعن، فسألها زوجها الحاج (صابر):

— ألم يصحّ البيه وزوجته الهانم حتى الآن وقد أوشك العصر أن يؤذن، أهذه التي أتت لتربي ابنه وتحمل عنك بعض الأعباء، الآن نحن في الأسبوع الخامس من زواجهم ومع ذلك الهانم لا تصحو إلا متأخرةً تاركةً عبء الولد والمنزل كله عليك، وحتى شؤون زوجها لا تقوم بها و(خليل) بدأ يشكو لي إهمالها وكثرة نومها وكسلها.

— ما زالت عروسًا وحتماً ستفيق يومًا، وإلا سأهد البيت على رأسها وأعيدها من حيث أتت؛ فلقد فاض بي الكيل أنا الأخرى، (هديل) رفعت القضية التي حاربت عمرًا حتى لا ترفعها وبين لحظة وضحاها قد تكسبها وتضم حضانة (إبراهيم) لها ووقتها قد أموت أنا وتذهب روعي مع ذهاب ابني الذي عوضني القدر به عن ابنتي.

— أما زالت لديك صور من تقارير المصححة النفسية التي دخلتها (هديل) والتي يمكننا أن نثبت بها أنها غير أهل لحضانة ابنها؟!

— أعطيتها للمحامي، لكنه يقول أن الكُتّاب الذي فتحته

(هديل) والذي أصبح من أكبر دور تحفيظ القرآن الكريم وتدريس مبادئ القراءة والكتابة قد يستخدمه محامها في إثبات أهليتها مع تقرير حديث من أحد الأطباء بأنها تعافت وهنا مكنم خوفي، لكنني لن أقف مكتوفة الأيدي وأسلم ابني لهذه المجنونة بيدي.

وهناك في دار النعمان للقرآن، كما أسمتها السيدة (حليمة) على اسم زوجها المرحوم الدكتور نعمان، كانت (هديل) تقف تعيد ترتيب بعض التلاميذ وفقاً لطولهم فالقصير في الأمام والطويل في الخلف، وضعيف النظر مقدماً... إلخ.

أصبحت الحديقة تضيق بعدد التلاميذ الذي بدأ يتضاعف، ولاحظت ذلك (هديل) والسيدة (حليمة)، فطلبت الأخيرة من (هديل) أن تتوقف عن قبول تلاميذ جدد لحين ما يتدبران الأمر.

وافقت (هديل) على مضمض، فكل طفل كانت ترى فيه ابنها (إبراهيم) وكانت تتمنى أن تعطيه كل ما لديها من حب وعلم، لكن بالفعل المكان أصبح لا يستوعب أعداداً أخرى، كما أنها ستصبح في حاجة لمن يساعدها، وبينما هي شاردة تفكر وتنظر للتلاميذ المنصرفه إذ بالطفلة (بيان) تشد ثيابها في ضعف...

تنهت (هديل) ونظرت في حنو وانحنى لتحملها لكن (بيان) كانت درجة حرارتها مرتفعة جداً، فذُعرت (هديل) وركضت بالبنت للدخل نحو السيدة (حليمة) التي أعطت البنت خافضاً للحرارة،

لكن دون جدوى، فحرارة الطفلة ظلت مرتفعةً، فأخذتها (هديل) وظلت تصنع لها كمادات ثلج عل الحرارة تنزل، حتى قالت في حزم: «سأخذ البنيت للمشفى، فأرجوك يا أمي هذا رقم عممتها؛ اتصلي بها لتلحقني إلى هناك.» وخرجت (هديل) مندفعةً دون أن تنتظر جوابًا من السيدة (حليمة).

وصلت (هديل) ب(بيان) للمشفى، فقام الطبيب بإعطاء الطفلة حقنة مضاد حيوي، وقال إن لديها التهابًا شديدًا في الحلق واللوزتين، وطلب بعض التحاليل السريعة لسرعة الترسيب والدم، وبعد أن يذهب الالتهاب عن البنيت سيعاود الكشف عليها بعد أسبوعين، وكتب لها حقن مضاد حيوي وبعض الأدوية لخفض الحرارة، وقال إن البنيت يلزمها تدفئة ورعاية تامة، وبينما الطبيب يوصي (هديل) كانت دموعها تتدفق بغزارة حتى ظن الطبيب أنها ابتها، فظل يهدئها ويطمئنها أن البنيت ستكون بخير وأن كل الأطفال في هذا السن غالبًا يتعرضون لمثل هذه المشاكل، فلا داع للقلق.

هنا سمعت (هديل) لأول مرة (بيان) تنادي بصوت ضعيف (بابا)؛ فالتفت (هديل) خلفها فوجدت رجلًا ذا لحية خفيفة مُحددة وشارب قصير ووجه مستدير، متوسط الطول، متناسق الجسم، أنيق، ذا عطر جذاب، يبدو من هيئته الهيبه واللفظ معًا، في وجنتيه غمازتان ظهرتا عندما ابتسم أول ما نادته (بيان)، فوضع

كفه على جبينها ووضع قبلةً حانيةً، وربت على صدرها في حنان بالغ، ثم التفت إلى الطبيب وقال في صوت رخيم:

– ألف شكر يا دكتور وأتمنى أن تكون (بيان) بخير.

وضع الطبيب يده على كتف والد (بيان) وقال:

– اطمن أستاذ ابنتك بخير، التهاب في اللوزتين والحلق، ولقد أعطيت كافة التعليمات لزوجـة حضرتك الأستاذة (هديل) فلقد جاءت بـ(بيان) في الوقت المناسب صراحة.

ثم انصرف الطبيب معتلاً بأن لديه بعض المرضى الذين هم في حاجة لمورده عليهم.

ارتبكت (هديل)، واحمرَّ وجهها خجلاً، وظلت تشبك بين أناملها في حياء واضطراب، وارتبك الأستاذ (عثمان) هو الآخر لكنه سرعان ما استجمع أعصابه وقال في نبرة يغلها الحزم الممزوج بالود وهو ينظر تجاه (هديل):

– شكراً أستاذة (هديل) لإنقاذك حياة ابنتي؛ لو كانت والدتها ما زالت حيةً ما فعلت أكثر مما فعلته أنت معها، فجزاك الله خيراً، لا أعلم حقيقةً ما يوفيك من الشكر حقك، لكن يكفيك دعوات أختي وأمي لك الآن منذ أن اتصلت السيدة (حليمة) بنا وأعلمتنا بما حدث، لكن لولا أن السكر أقعد والدتي لسماعها خبر تعب (بيان)

لكانت أختي (سوزان) جاءت معي وشكرتك بنفسها، لكنها ظلت مع والدي، ووجئت من عملي فور أن اتصلت بي وأشكرتك بالنيابة عنها وأسأل الله ألا يضررك في عزيز لديك.

– لم أفعل سوى واجبي نحو ابنتي؛ يعلم الله كم أحب (بيان) وهي بمنزلة (إبراهيم) ابني تمامًا، فلا داع للشكر أستاذ.

– (عثمان أباطة) وكيل للنائب العام، ربنا يبارك لحضرتك في ابنك ويقر عينك بزوجك ويبارك لك فيهما.

– جزاك الله خيرًا يا سيادة المستشار (عثمان)، ادع لي أن يرد الله لي ابني مردًا جميلًا.

– عفواً؛ هل ابن حضرتك ليس معك؟!

– نعم، مع أبيه منذ ثلاث سنوات ونصف تقريبًا ولم أره منذ ذلك الوقت إلا خلسةً، لقد أوحشني صوته فلم أسمع منه كلمة (أمي) منذ سنتين ونصف تقريبًا، أوحشتني رائحته، تمنيت لو ضممته فشممت رائحته وغفوت معه قبل أن يغفو هو في حضني.

– لقد ألهمت قلبي وجعًا، أسأل الله أن يرده إليك مردًا جميلًا، لماذا لم تخرجاه خارج خلافاتكما؟ وشرعًا وقانونًا هو لحضانتك، ومن حق أبيه أن يراه وقتما شاء، ليس من الحكمة أن نجعل الأبناء عصًا لضرب الطرف الآخر بها، لأنهم لن يؤلموا الطرف الآخر بقدر

ما سيؤولوننا نحن بوجعهم.

– هذا عندما يكون للطرف الآخر قلب أو عقل، لكن عندما تتبدل القلوب بالحجارة والعقول بالثرى فحينها لن يجدي كلام ولن يُسمع نداء.

– عمومًا، أنا تحت أمرك في أي وقت تحتاجين فيه لأي دعم، ومن هذه اللحظة اعتبريني أخاك، وهذا كارت به كافة أرقام هواتفني... هيا يا (بيان) لنذهب للبيت ولتقولي لأستاذة (هديل) شكرًا... هل تسمحين لنا أن نوصلك في طريقنا أستاذة (هديل)؟!

– لا أريد أن أتعبكم سيادة المستشار.

– لا تعب ولا شيء، ستحملك السيارة، ولن نحملك على أكتافنا أستاذة.

ابتسمت (هديل)، ووضعت (بيان) يدها في يد (هديل) فحملتها (هديل)، وعندما حاول (عثمان) أن ينزلها فأبت ورفضت بشدة، فطلبت منه (هديل) أن يتركها وراحتها، حتى غفت ونامت (بيان) على رجلي (هديل) في السيارة، وعندما جاءت (هديل) لتنزل؛ استيقظت (بيان) وبكت بشدة، ورفضت أن تفك ذراعها عن رقبة (هديل)، وبعد محاولة شديدة من (هديل) وافق (عثمان) أن تبيت (بيان) ليلتها مع (هديل) على أن يمر عليهم صباحًا ليطمئن عليها قبل ذهابه

لعمله، وفي الظهيرة ستأتي عمته لتأخذها.

في بيت الحاج (صابر) عمت الجليلة، فهذه هي المرة الخامسة تقريباً التي تتقيأ فيها الحاجة (ريّة) بينما تشكو من صداع يكاد يفتت رأسها منذ أسبوع، وكلما عرض عليها زوجها أن يذهب بها للطبيب ترفض وتقول إنها ستأخذ حبة مسكن وستكون بخير، لكن هذه المرة اشتد الأمر حتى وقعت من كثرة القيء والصداع مغشياً عليها، فطلب الحاج (صابر) الإسعاف، وترك إبراهيم مع زوجة (خليل) بينما انطلق هو وابنه وراء زوجته...

وهناك خرج عليهم الطبيب مكفهاً وقال في نبرة يائسة: «لقد تأخرتم كثيراً، لقد أصاب الحاجة نوع نادر من سرطان الدماغ، ومع الأسف بدأ يتسرب لبقية الجسد، فوصل إلى العمود الفقري، وبدأ ينخل في العظام ويبدو أنه أصاب جزءاً كبيراً من الكبد والبنكرياس وأجهزةً مختلفةً من الجسم، وفي هذه الحالات ستعرض المريضة لجلسات مكثفة من الكيماوي والإشعاع، ولكن وبمنتهى الصراحة أقولها لكم إنها مجرد أيام.»

ضرب الحاج (صابر) كفيه ببعضهما وظل يحوقل ويسترجع، وابنه (خليل) فارغ فاه في ذهول، يحاولان استيعاب الأمر.

ثم استجمعا قوتهما ودخلا على الحاجة (ريّة) فوجدا كل مكان بجسمها تقريباً يخرج منه خرطوم موصل بجهاز يعطي إشارات على

شاشات، وهي في غيبوبة تامة، جلسا بالقرب منها، حاول الحاج (صابر) أن يضع يده بيدها، ففتحت عينها وجالت ببصرها في جميع أنحاء الغرفة، فقال لهت زوجها:

– أنا بجانبك يا أم خليل، هل تحتاجين شيئاً؟!

لكنها ظلت ساهمةً، وكأنها لا تسمعه، وفجأةً بدأت تغمغم وكأنها تحدث أناسًا ليسوا هنا، ثم غابت في غيبوبة جديدة. طلب الحاج (صابر) من ابنه أن يرجع للبيت ليطمئن على ابنه وزوجته ويحضر بعض الأغراض، فانطلق (خليل) عائداً للبيت وهناك كانت المفاجأة.



كان يوم الجمعة وهو يوم إجازة الدار، ولكن يبدو أن (هديل) لديها مهمة جديدة لكنها أكثر محبةً لقلبها وهي العناية بـ(بيان)، تلك الطفلة التي بزغت كالقمر من وسط العتمة لتنير قلب (هديل) الذي كاد ينطفئ بغياب ابنها (إبراهيم) عنه.

كانت (بيان) طفلةً جميلةً القسمات ذات شعر طويل أسود كليل حالك ووجهها كطباق حليب مستدير، وخدودها كتفاحتين، بينما برزت شفتاها كحبتي كرز، عيناها نجلاوتان مكحولتان، رموشها كحدي السيوف، خفيفة الظل، متقدة الذكاء، ثرارة مع

سقطات في بعض الحروف زادتها لذةً وطعاماً وخفةً وجمالاً وجاذبيةً، كانت في الثالثة من عمرها ومع ذلك تحفظ الحروف الأبجدية كلها، وتحفظ قصار السور أكملها، وكثيراً من الأناشيد الجميلة، وكان صوتها جميل بمجرد أن تسمعها تغني تجعلك تتشوق لتقبلها وحملها واحتضانها.

يبدو أن حرارة (بيان) - بعد حقنني المضاد الحيوي، وأخذها للخافض - بدأت تستقر نوعاً ما، لكنها ما زالت لا تريد أن تفارق حضن (هديل)، للدرجة التي جعلتها تتناول الإفطار بصعوبة غير صعوبة البلع حيث كانت جالسةً على حجر (هديل) لا تريد أن تتزحج، وما نزلت عن رجلي (هديل) إلا عندما طلبت منها أن تدخل الحمام لقضاء حاجتها فتركها (بيان) بصعوبة بالغة.

دق جرس البيت، ففتحت (هديل) وهي تحمل (بيان) على ذراعها، فوجدت (عثمان) يبتسم، فشعرت (هديل) - ولأول مرة ومنذ سنوات - بقشعريرة تسري بجسدها كله، لم تدر ما مصدرها، ربما التقاء شاطئي عينيهما، فعمق عيني (عثمان) لم يكن بالهين، الدفاء المسكوب على رموشه كان بالقدر الكافي ليذيب جبال الجليد القابعة على فؤادها.

شعرت وكأنه يعانقها، يضمها بكل ما أوتي من احتياج بعينه، كأنه الاجتياح بقدر الاحتياج، وعندما امتدت يده لتصافحها ذابت

روحها في راحته، من بين اضطراب النبضات وُلدت مشاعر كانت تظن أنها وُئِدَت منذ زمن ودُفِنَت مع طعنات الغدر من (خليل)، لكنه الله، ندى والكريم لا ينسى، يعوضنا ويبدلنا خيرًا مما أخذ منا طالما وجد في قلوبنا خيرًا.

– تفضل أستاذ (عثمان)، لا يصح أن تظل واقفًا هكذا على الباب.

– شكرًا أستاذة (هديل) كنت أريد الاطمئنان على (بيان) فحسب، لكن واضح أنها تحسنت كثيرًا، الحمد لله، لا أعلم كيف أشكرك على كل ما فعلته مع ابنتي حقيقةً.

– لا تقل هذا، (بيان) ابنتي، والله يشهد على مدى حبي لها وتعلقني بها، وكأن الله أرسلها لي لتعوضني عن فراق ابني الوحيد، تفضل لتشرب معنا الشاي فأمي (حليمة) بالداخل.

– مرةً ثانيةً بإذن الله سأتي ونشرب عصيرًا مثلجًا، لأنني تأخرت الآن على عملي، ومرةً ثانيةً ألف شكر، وأتمنى ألا تكون (بيان) أتعبتك.

– وللمرة الألف لا شكر على واجبي نحو ابنتي.

دخل (خليل) من بوابة البيت على ضجة وجلبة وصوت وزحام، فشقّ الزحام وهو متجهم ومندهش واندفع يركض نحو باب شقة

والده فصُعِقَ لما وجد المنظر، فقد وجد ابنه (إبراهيم) في حجر جارتهم ويده اليمنى عليها ضمادات والجارّة تغمغم وتدعو وتقرأ بعض آيات القرآن الكريم على الصغير عله يهدأ وينام، لكن أنى للصغير أن ينام من شدة الألم والحرق من الدرجة الثانية.

وما إن شاهدت الجارة (خليل) حتى راحت تصرخ في وجهه وتسبه وتتهمه بالإهمال وأنه ليس أهلاً للأبوة، فكيف يترك طفلاً صغيراً بمفرده في بيت والبيت فيه بوتجاز وكهريت وغاز وكهرباء و... إلخ ويخرج.

وظلت الجارة تركز (خليل) بكلامها حتى صرخ في وجهها:

— كفى! ماذا حدث لابني؟! لقد كنت مع أمي في المشفى بعد أن أوشكت على الموت، وتركت ابني مع زوجتي، فكيف ومتى حدث له ذلك وأين زوجتي؟!

فتحت المرأة فاهها في ذهول، ولم تجد جواباً، وبعد فترة وجيزة من الاندهاش قالت:

— ألف سلامة على الوالدة يا بني، والله ما علمت بمرضها، أنا سمعت صوت البكاء العالي المستمر للطفل فجئت أركض ظانّة أن والدتك معه وأن سوء أصابه فجئت أحمله عنها، لكن وجدت الباب مغلقاً، فرحت أطرق دون رد. زاد بكاء الطفل، فاستعنت

بالجيران وكسرنا الباب ومعدرةً يا بني، فقد وجدت ابنك والنار  
مشتعلة في الستارة وممسكة بكمه الأيمن، والحمد لله أسرعنا  
وأطفأناها، وجرينا به على المشفى القريب فأسعفناه، وعندما دخلنا  
لم نجد معه أحدًا لذلك احتد صوتي معك يا بني، فسامحني.

– لا عليك يا خالة، جزاك الله خيرًا، لكن أين ذهبت زوجتي؟!



جلست (هديل) بعد أن وضعت صينية الشاي بالنعناع من  
يدها على المنضدة الصغيرة، وناولت السيدة (حليمة) كوبًا ساخنًا  
من الشاي احتسته السيدة على مهل، ثم رفعت بصرها وقالت  
ل(هديل):

– والله (بيان) كانت تملأ البيت حسا وبهجة بالرغم من مرضها،  
وما كنت أتمنى أن تذهب مع عمته لولا أن جدتها مريضة وتتوق  
لرؤيتها.

– فعلاً، أنا أيضًا اعتدت على وجودها في حضني، وحسها في  
البيت وهي تناديني ماما، وكأنها جاءت لتسمعي الكلمة التي انحرمت  
منها منذ أن غاب عني ابني، أرايت كيف أنها ذهبت وهي تبكي وكانت  
متشبثةً برقبتني وتعانقني لا تريد أن تتركني.

– نعم، انتشلتها عمته بقوة وهي تصرخ، لكنها وعدت بأن تأتي

بها غداً للدار، صحيح على غرار ذكر الدار، أبشري لقد اتصلت بالمقاول وسيأتي ليضم المئة متر المجاورة التي كنت أأخزن فيها بعض الأغراض للدار وسيتم توسعة الدار وبناء فصول جديدة لتستوعب كل الأطفال الجدد بإذن الله يا حبيبة أمك.

— والله أنت كأمي فعلاً، بل لا أبالغ لو قلت أنك عندي أعلى من نفسي، الله لا يحرمني منك ويديمك لي تاجاً فوق رأسي.

ثم قامت (هديل) فقبّلت يد ورأس السيدة (حليمة) وارتمت على صدرها وهي تبتسم، بينما أخذت السيدة (حليمة) تهدد شعر (هديل) الناعم وتتمتم بآيات القرآن والمعوذتين.

وفجأةً رُفِعَ صوت مكبر الصوت لمسجد القرية ولم يكن وقت أذان، فانتهت (هديل) ورفعت رأسها من على صدر السيدة (حليمة) وقامت إلى النافذة تستطلع الأمر، والسيدة مشرّبة الرأس تحاول أن تصغي، وإذ بإمام المسجد يعلن خبر وفاة السيدة أم خليل زوجة الحاجّ (صابر) والدفنة بعد صلاة العشاء بمسجد قرية الحسينية، والعزاء قاصر على تشييع الجنازة، والدوام لله وحده.

وضعت (هديل) يدها على فمها وهي فاغرة فاها وتردد إننا لله وإننا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يرحمها ويغفر لها، ذهبت لما قدمت.

ردت عليها السيدة (حليمة): ابنتي أعلم أنها فعلت بك الكثير والكثير، ولكنها الآن بين يدي عليم خبير قدير، فسامحها واصفح.

قالت (هديل) وكل ملامح وجهها تكاد تكون تيبست:

– قد أسامحها في حقي وما أذاقته لي من كؤوس القهر، قد أسامحها في ليال سود نمتها ودموعي تغرق مخدعي، لكن كيف يمكن أن أسامحها في حق طفل حُرِّم ثديي رضيعًا، وحُرِّم حضني وليدًا، وحُرِّم حناني وحُرِّم أن أقبله كل صباح عندما يصحو، وأن أقبله كل مساء عندما يغفو، كيف أسامحها على انشقاق قلبي وانصهار روحي اشتياقًا لشمِّ رائحة ابني، لسماعه يناديني أُمي كباق الأمهات، لقد تلطم ابني وأمه حية تُررِّق، وانكوى صدري وابني هناك يعيش، ربما أسامحها لكن صدقًا؛ لن أستطيع أن أعدك أن أنسى الوجد والألم الذي انشطر عن زلزلتها لحياتي.

وقف (خليل) مُنكِّس الرأس يأخذ العزاء، بينما حاول الحاج (صابر) أن يشد على يد ابنه، ويسند ظهره، خاصةً بعد الفاجعة التي ظلت حديث القرية كلها تتحدث عنها قبيل وفاة الحاجة (رية) وهي خيانة زوجة خليل له، أصبحت القرية كلها تلوك القصة ومنهم من أبدى شماتةً وقال إن هذا ذنب (هديل) ومنهم من أبدى تعاطفًا وقال إن هذا كله حدث بسبب أمه ولولاها لعاش (خليل) و(هديل) سعداء.

حينما عاد (خليل) ووجد ابنه محروقًا ظل يتصل على هاتف زوجته لكن دون أي رد، وفجأة أُغلق الهاتف، وعندما اتصل بأهلها قالوا إنهم لا يعلمون عنها شيئًا وإنما لم تأت إليهم منذ يومين، ظلّ (خليل) منتظرًا عودة زوجته فلم تعد، فدب القلق في صدره، فذهب لقسم الشرطة ليحرر بلاغًا، فقالوا له يجب أن تمضي على اختفائها 24 ساعة، فعاد إلى البيت حزينًا مهمومًا قلقًا خائفًا، وظل يدخل ويتصل بكل من يعرفهم علّا أحدًا يكون رآها هنا أو هناك فيطمئنه، حتى شقشق الصبح معلنًا عن يوم جديد، وإذ بسائق توكتوك يطرق باب (خليل) ففتح لتوه مسرعًا ظانًا أنها زوجته، فإذ به سائق معرفة، صافحه وقال في عجل: «صباح الخير أستاذ (خليل)، أعلم أنك تبحث عن زوجتك منذ الأمس، ويؤسفني أن أقول لك أنني قد أوصلتها بنفسها ورأيتها فيما لا أحب ولا تحب أن تراه.»

كاد خليل أن يمسك بجيب الرجل في جنون، وقال له في عصبية وغضب: «ماذا تقول أيها الرجل؟! أين زوجتي؟!»

رد الرجل وهو يحاول أن يفك يد (خليل) عن جيب قميصه: «تعال معي أستاذ (خليل) لترى بنفسك.»

ذهب خليل مع الرجل في توتر وعصبية أشد، والسيجارة لا تنطفئ حتى يوقد غيرها، حتى وصل لبيت على شكل (قبلا) من دون سور، متطرف في آخر القرية عند نهاية المزارع، فتوقف الرجل وقال

هذه قبلا لأحد البكوات يأتي إليها كل فترة، ويطبق لمدة ليلة أو أكثر، وطبعًا يطلب حريمًا وخمرًا وما إلى ذلك، والمتعهد له بذلك تقريبًا على علاقة بزوجة حضرتك، لأنني سمعتها تقول له في الهاتف مؤكدةً على العنوان أنها وصلت، وعندما وصلت استقبلها الرجل كما - آسف، اعذرني أستاذي- يستقبل العاهرات التي يستقبلهن كلما نزل ولقد أعطته خدودها وظاهر جسدها يلتم ما يشاء، ففهمت أنها الضحية الجديدة التي سيقضي معها إجازته، هذا الرجل ثري جدًا ويُقال أنه ذو منصب حساس.

نزل (خليل) واجمًا شاردًا مسرعًا يتمنى لو تخطفه الطير، أو انشقت الأرض فابتلعتة ولا يكون كلام سائق التوكتك صحيحًا، ولكنه عندما طرق باب البيت، فتحت له زوجته في ثياب تكاد تكون عاريةً وهي شبه مخمورة وخلفها وقف رجل في سن الخمسين تقريبًا مخمورًا تمامًا يترنح متسائلًا عن الطارق، فسحلها خليل بملابسها العارية من شعرها حتى رماها في التوكتك وأشبعها ضربًا.

ولأن الأمر كان في النهار والقرى صغيرة والكل يعرف بعضه فتقريبًا ما عدى التوكتك على أحد إلا وأصابه الدهول والدهشة وهناك من جاء يجري خلف التوكتك ليتفرج، وصارت فضيحةً حتى وصل لبيت أهلها فرماها لهم بعد أن رمى عليها يمين الطلاق بائنًا ثلاثًا.

طلقها، لكن ظلت عوائل قصتها القذرة تطارده، حتى فُجِع بعدها بأقل من يومين بوفاة أمه، فالتهى الناس قليلاً عن هذا بذاك وإن لم يسكتوا تمامًا، والناس عندما يكونون فارغي العقول والقلوب تجدهم مندشغلين بغيرهم أكثر من أنفسهم، ينشغلون بهذا طلق، وهذه كيف ماتت، وهؤلاء كيف أصبحوا وأولئك لم تفرقوا، لكن عندما يكون الإنسان ذا عقل ممتلئ بأهداف يسعى لتحقيقها، وقلب شاغر بالحب، مشغول بكيفية توزيعه لن تجد عنده وقت لتتبع عورات غيره ولا الحديث عنهم.

بدأ العمال في بناء الفصول الجديدة بناءً على توجهات المقاول وإشراف السيدة (حليمة)، وكانت (هديل) تكاد تطير من الفرحة وهي ترى أن الله ينير لها حلمًا؛ كاد الظالمون يطفئوه بسواد قلوبهم، فدار (نعمان) لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة صارت من أكبر دور تحفيظ القرآن الكريم في الناحية كلها وليس فقط في القرية.

وبدأت (هديل) تفكر أن تعمل افتتاحًا جديدًا بليلة إنشاد جديدة لمدح النبي، لكن هذه المرة في ذكرى المولد النبوي الشريف، وتفتتح فيها وبها الفصول الجديدة وتقوم بتوزيع الحلوى وبعض الكتيبات الفاخرة التي جاءتها كهدايا عينية، وعينات مجانية لبعض دور الكتب لسيرة النبي (ﷺ) للأطفال.

وقد جاء المولد وكان الافتتاح مهراً ساهراً جميلاً، فرح الأطفال كالعادة فيه، وتمتعوا عندما جلس الراوي يغيي سيرة الحبيب الزين محمد رسول الله (ﷺ)، ويحكي قصته ويصف جماله، ثم قامت (هديل) لتوزع على الأطفال الكتيبات، وبينما هي تفعل إذ بكف صغير تعلمه جيداً يقول لها في مرح: وأنا أيضاً يا ماما أريد كتاباً وبالوناً وشوكولاتةً، فابتسمت هديل ونزلت لتمسك بإيهاها وسبابتها خدي (بيان) ثم وضعت قبلةً عميقةً وقالت مبتهجةً: «من عيني يا حبة عيني ماما.»

وعندما جاءت لتقف إذ بيد تمسك بيدها وتسندها في حنو، كانت هي يد (عثمان)، كان على الفور هو اليد التي سندت (هديل) لتقف، فارتجف قلبها وارتعشت يداها كعصفور صغير جاءت أمه لتوها تلقمه حباً من بعد جوعه.

وتلاقت أعينهما ثانيةً، لكن هذه المرة طال عناق الأعين حتى انفصلا عن الواقع، وكأن الحفل ما عاد فيه غيرهما، ذابت (هديل) في فنجان عين (عثمان) تمامًا كحبة سكر، ثملت من نظرتة وإن لم تذق خمراً، شعرت وكأنها سندريلا على جناح فراشة وردية طارت بها للحظة...

طالت وقفة الأستاذ (عثمان) وكيل النيابة مع السيدة (حليمة) منفردين؛ حتى جلست السيدة وأشارت له بالجلوس في (مندرة)

الدار تاركين الحفل، بينما عينا (هديل) تراقبها عن كذب، وقلها يخفق من شدة التوتر، تذهب لتلهو مع الأطفال وتلهي نفسها بسماع المنشد قليلاً وهو يمتدح رسول الله (ﷺ)، ثم تعود لتقف في نفس الزاوية المقابلة للمكان الذي يجلس فيه (عثمان) مع السيدة (حليمة)، حتى لمحت السيدة تبتسم وتلفت إليها، فأظهرت (هديل) وكأنها مشغولة مع الأطفال، فنادتها السيدة (حليمة) فركضت (هديل) كطفلة صغيرة تترقب حلواها من أمها.

فمسحت السيدة على ظهرها وقالت لها إن الأستاذ (عثمان) طلب يدها للزواج، وهو متكفل بكل شيء حتى ملابس البيت قبل الخروج سيشتريها؛ لكنني قلت له أن ابنتي سيتم شوارها وتجهيزها كأجمل عروس، وستذهبن له وكأنك عدت بكراً، فما رأيك يا ابنتي؟! احمرّ وجه (هديل) ولم تستطع أن تقول شيئاً وأخفضت طرفها حياءً، وقالت في براءة العذراء: «الرأي ما ترينه يا أمي، لكن...» علمت السيدة (حليمة) ما دار برأس (هديل)، كما علم به (عثمان) نفسه، فقام الأخير بالرد:

– إذا كنت قلقة بشأن (إبراهيم) سأخبرك أمراً: قبل أن آتي للحفل ببضعة أيام بصفتي صديقاً للعائلة اتصلت بي السيدة (حليمة) وأعلمتني بالقصة كاملة، ولي صديق يعمل ضابطاً في المباحث كلفته بتحريات حول الموضوع، وعلمت أن طليقك خاسر

لا محالة قضيته معك في طلب حضانتك للطفل، فلقد حدث ما سيحسم الأمر، لكن ما أردت أن أخبرك خشيةً عليك من الصدمة.

– ماذا حدث يا (عثمان) بربك أخبرني؟!

– إبراهيم حُرقت يده بسبب إهمال زوجة طليقك والتي طلقها بفضيحة عافانا الله وسترنا بالدارين، وبالتالي سنضيف ما حدث لملف القضية ونتممه بالإهمال وستكسبين القضية من أول جلسة بإذن الله، كما أن تقارير الأطباء الحديثة تثبت شفاءك التام، والحمد لله، وأنت بكامل صحتك النفسية، ولقد اتفقت مع السيدة (حليمة) أن يكون الزواج بعد أن تكسي قضيتك بضم ابنا، وليشهد الله أنني ومنذ اللحظة سيكون (إبراهيم) أختًا لابنتي (بيان) ومسؤولًا مني مسؤوليةً تامةً أمام الله.

ابتسمت (هديل) ولمعت عيناها بدمعتين من الفرحه ولهث لسانها بالشكر والحمد لله، وكادت أن تحتضن (عثمان) بعينها، وتعانقه فلا تتركه إلا وقد أوفته شكرًا، لكن حياءها وكونها ما زالت لا تحل له منعها، فاكتفت بالنظر له في فرح ممزوج بالتيه والوله.

جلس (خليل) منكس الرأس دامع العينين، ينظر لصورة (هديل) التي كان يحتفظ بها في هاتفه المحمول في ملف سري، كان يخفيه عن أمه وزوجته، لكنه الآن يطالعها في وضوح ودون خوف، ينظر لها وكأنه يعتذر عن كل السنوات التي أهدرها في بعده عنها وهي

الوحيدة التي كانت تفهمه دون أن يحكي، وتحديثه دون كلام.

دخل أبوه، فوجده في هذه الحالة، فقال له في حنو بالغ: «ثم ماذا بعد يا بني؟! هل ستظل تبكي على الأطلال هكذا لتضيع ما تبقى من عمرك في الحزن والكمد، والحزن لا يعيد ما راح ولا يغني أحد.»  
رفع (خليل) رأسه والدموع بدأت تنزل منهمة لا ترحم رجولته، وقال في نشيج اختنقت معه كلماته: «وماذا يمكنني أن أفعل يا أبي، وكل شيء ذهب وانقضى، حتى ما كنت أملكه أخذته الفاجرة بحكم المحكمة كقائمة منقولات، فلم تبق شيئاً يمكنني حتى من البدء من جديد.»

نكس الحاج (صابر) رأسه وأعلا من كتفيه، وقال في وجوم وجدية: «لن ينفعها يا بني، ثم فلتذهب هي وما أخذته إلى الجحيم، فذاك وفداءً لابنك، لو تتذكر يا (خليل) أنا لم أكن موافقاً أبداً على زواجك من هذه المرأة وحذرتك، لكن الله يرحمها ويسامحها أمك شجعتك وظنت أن بزواجك منها ستغيظ (هديل) وتدفعها للانتحار، لكن (هديل) رفضت عن طرف ذيها ما علق منك من ذكريات، وتطلعت لعملها وحققت لنفسها ما سعت أمك وأخوها لهدمه، فأصبحت من أصغر سيدات الأعمال ومسؤولة عن أكبر دار لتحفيظ القرآن الكريم في المحافظة كلها.»

«والله يا بني خطرت ببالي فكرة، ما رأيك لو أعدت شملك بها،

لتربيا ابنكما معًا، وتكملا حياتكما، وهي الآن غنية وستمدك بكل ما تحتاجه وفقدته لتبدأ من جديد؟!»

نظر (خليل) إلى أبيه نظرة استغراب تمتزج بالدهشة والأمل في أن واحد، وقال: «وهل يمكن ذلك بعد كل ما حدث، وبعد كل هذه السنوات؟!»

فقال والده: «ولم لا يا بني، فلتغامر ولتحاول، ولن تخسر أكثر مما خسرت، ففي الحب قوة، والجبن للضعفاء.»

ابتسم (خليل) وكأن الفكرة راقته له، وقال: «حسنًا، غدًا، سأخذ إبراهيم ونذهب إليها، عليها عندما تراه يلين قلبها وترق لما سأطلبه منها.»

وبينما (خليل) وأبوه يتبادلان أطراف الحديث دق جرس البيت، فقام (خليل) ليفتح فإذا بمحضر يسلمه ورقةً بموعد جلسة المحكمة في قضية ضم (هديل) لابنها، فوضع (خليل) توقيعته وتسلم الورقة وهو غاضب، ولما انصرف المحضر أغلق الباب، والتفت إلى أبيه وقال: «انظر، غدًا موعد القضية، وكأنع فات الأوان كثيرًا يا أبي، للدرجة التي سيكون أول لقاء بيننا في المحكمة.»

في الصباح، وعندما ارتفعت شمس الضحى لتنير الكون بهجةً وجمالًا، كأنه لم يكن بهذا الجمال من قبل، نزلت (هديل) منشرفة

الصدر ترتدي عباءةً فيروزية اللون، وغطاء رأس بلون جملي،  
وحملت حقيبة يد أنيقةً كبيرةً لونها يجمع بين الفيروزي والجملي،  
وفي إصبعها خاتم فيروزي زاده حلًا وجمالًا، وفي قدمها حذاء أرضي  
جملي مريح، ووضعت على عينيها نظارةً شمسيةً بُنيةً، فبدت وكأنها  
فتاة جامعية مبهجة.

ونزلت درج سلم البيت تسند السيدة (حليمة)، فلما رآها  
(عثمان) تسمرت عيناه وانهر فاعرًا فاه، وقال: «ما شاء الله، اللهم  
بارك، هل كل هذه الأنوثة والرقّة والبهجة والبراءة ستكون لي  
وحدّي.»

تلعثمت (هديل) وابتلعت ريقها، واحمرت وجنتاها، ولم تستقر  
عينها تحت النظارة، وذابت كقطعة سكر من شدة الخجل،  
وارتعشت يدها الممسكة بالسيدة (حليمة)، فابتسمت السيدة  
وربتت على يدها وقالت: «اللهم بارك لهما وبارك عليهما واجمع بينهما  
في خير.»

ركبوا جميعًا سيارة (عثمان) وانطلقوا إلى المحكمة، وهناك  
ولأول مرة ومنذ سنوات التقت عينا (هديل) و(خليل) داخل قاعة  
المحكمة، وانصرفت عين الأخير لتتسمر على (عثمان) وكأنها  
تستفسر من يكون هذا؟!!

لكن نظرة مقت واحتقار وتجاهل من (هديل) صفعت (خليل)،

لتسكته وإن لم ينطق، خاصةً وقد رفعت يدها في رقة وكأنها تعدل من حجابها فظهر خاتم خطبة أنيق بيدها اليمنى، فألجم (خليل) لجام الصمت للأبد على ما يبدو، فخر على كرسيه غاضبًا يعرض على إصبعه غيرهً وكمدًا.

بعد مرافعات للمحامين، وبعد الاطلاع على أوراق القضية، حكم القاضي بضم الطفل (إبراهيم خليل صابر) إلى أمه السيدة (هديل عرفة)، رُفعت الجلسة، خرت (هديل) ساجدةً لله شاكرةً، وهلت وكبرت السيدة (حليمة) أما (عثمان) فوقف مع المحامي يستعجله أن يستعجل ضم الطفل فورًا لحضن أمه، وقد كان.

تزوج (عثمان) بـ(هديل) وانتقلت للعيش معه في بيت جديد بناه بجوار السيدة (حليمة) التي عاشت لسنوات قليلة بعدها حتى رأت أول حفيدة لها من ابنتها (هديل) والتي أسمتها على اسمها (حليمة)، ثم رقدت السيدة الطيبة في أمان في ليلة خميس من العشر الأواخر من رمضان وهي صائمة تسبح على مسبحتها بعد صلاة الفجر، فودعتها (هديل) بالدموع، لكنها ستظل حيةً في القلوب.

وعاشت (هديل) مع (عثمان) وربت ابنته (بيان) كأنها ابنتها، وتكفل (عثمان) بتربية (إبراهيم) حتى تخرج ضابطًا من الكلية الحربية، ورُقت (بيان) إلى (إبراهيم)، ورُزقوا من البنات بـ(بينات) ومن الصبيان بـ(بهاء الدين)، وعاشوا جميعًا في أمان وسلام.

